# العقل وأوهامه
# عند
# الجاحظ والغزالي وفرنسس بيكون

بحث مقدم من

**محمد على منصور مزروعه**

مدرس العقيدة والفلسفة

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين - بالقاهرة

**(لا تنكر لنفسك أن تزل ... ولعقلك أن يهفو)**

**الأديب والفيلسوف**

**أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ**

**(إن العقل إذا تحرر من غشاوة الوهم والخيال،لم يتصور أنه يغلط، بل يرى الأشياء على ما هي عليه)**

**حجة الإسلام**

**الإمام/ أبي حامد محمد الغزالي**

**(لم يفهم أحد أسباب أخطاء الإنسان أكثر من فرنسس بيكون)**

**الفيلسوف الفرنسي**

**"إيتين بونوت دي كونदياك"**

**Étienne Bonnot de Condillac**

## ﴿ المقدمة ﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

**أما بعد**

فإن العقل البشري مناط التكليف والتشريف، فهو أساس الدين، ومنبع العلم، وعليه قامت الحضارات، وامتدت المدنيات، ولقد أعظمه الله– تعالى– وأكبر مكانته، وأجله الرسول– ﷺ – وقدس حرمته، ومجده العلماء والحكماء، فأعلوا من شأنه، وجعلوه السيد والحكم.

والإنسان كائن معرفي بطبعه، يدفعه دائمًا حب الاستطلاع إلى كشف الغائب، إشباعًا لحاجاته المادية والروحية، وحتى يبلغ مأربه، يستخدم عقله مفكرًا عبر مراحل استدلالية متنوعه ومتعددة.

والمعرفة العقلية الحقة، العارية عن الأوهام، هي الضابط الصحيح، والمعيار السليم، للتفكير الإنساني، وحتى يسلم العقل، ونستطيع أن نعتمد عليه، لا بد أن نخلصه مما عسى أن يقلل من شأنه، ويطمس نوره فلا يقوم بوظائفه كما ينبغي، وذلك لن يكون إلا بدراسة منهج التفكير العقلي؛ للوقوف على الآفات التي تصيب العقل الإنساني، وتعطل حركته، فلا يعمل بالطرق الإستدلالية السليمة.

والعلماء عامة، والجاحظ والغزالي وفرنسس بيكون خاصة، جاهدوا ليخلصوا العقل من العراقيل والآفات التي توقعه في الوهم، فكشفوا عن الأغلوطات التي من شأنها أن تطمس نور العقل ورفعوا الستار عن الأوهام التي تزيغ بالعقول عن الحق واليقين.

وتختلف الرؤية بين هؤلاء الثلاثة، فلكل منهم وجهته في إدراك أوهام العقل وأسبابها، غير أن هناك حالة من الشبه والتشابه بين الغزالي وبيكون على مستوى الأفكار والمناهج، سواء من طرف قريب أم بعيد، هذه الحالة استدعت إجراء مقارنات وموازنات تحليلية في هذا الشأن.

ولدراسة هذه القضية– بالوقوف على آراء كل من هؤلاء العلماء، وعقد موازنة يتجلى من خلالها نقاط الإتفاق والإختلاف بينهم، ومدى تأثر علماء الغرب بالإمام الغزالي– كان هذا الموضوع وعنوانه "العقل وأوهامه عند الجاحظ والغزالي وفرنسس بيكون"

***سبب اختيار هذا الموضوع.**

لقد كان وراء اختياري لهذا الموضوع بواعث ودوافع كثيرة تآزرت وتعاونت على دفعي لاختياره، أهمها:

أولاً: كشف اللثام عن الأوهام التي تصيب العقل وأسبابها.

ثانياً: الرغبة في تخليص العقل، وتحريره من القيود التي تعوق عملية التفكير الحر.

ثالثاً: التعرف على آراء واتجاهات مختلفة– في هذه القضية– وذلك من خلال الجاحظ والغزالي بيكون، خاصة وأنهم نشأوا في بيئات وعصور مختلفة.

رابعاً: الإهتمام بصلة الفلسفة الإسلامية بالفلسفة الأوربية الحديثة، فالأمر لا يقتصر على التشابه الواضح بين الغزالي وبيكون في قضية أوهام العقل، بل يتعداها إلى قضايا أخرى، فعلى سبيل المثال لا الحصر: منهج الشك لدى الغزالي هو نفسه لدى ديكارت، وفكرة السببية عند الغزالي هي نفسها عند ديفيد هيوم، والصلة قائمة بين ميتافيزيقا الغزالي وكانت.

خامسًا: إبراز التطابق بين فكر كل من الإمام الغزالي وبيكون من خلال المقارنة التفصيلية لمحاور هذه القضية، لدى كل منهما.

سادسًا: الرد من خلال هذا البحث على من يدعي أن الغزالي قضى على الفلسفة في الشرق، فهذه القضية الفلسفية– وغيرها من القضايا– تكشف عن مدى تهافت الأسس التي قامت عليها هذه التصورات.

***المنهج المتبع في هذا البحث:**

إن المنهج **Method** هو: الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة(١).

ولما كان المنطق يدرس صور الفكر وطرق الاستدلال السليم، فقد استخدم "المنهج الاستنباطي"**Deductive Method** الذي فيه ينتقل الباحث من المقدمات إلى النتائج.

وأسس هذا المنهج الجوهرية هي التعريفات؛ لأن الباحث يبدأ بتحديد معاني الألفاظ المستخدمة في بحثه، ودائمًا ما يتطلب هذا المنهج استخدام المناهج التالية:

أ- المنهج الوصفي:**Descriptive Method** ويهدف هذا المنهج إلى وصف الظواهر وصفًا دقيقًا، محدداً خصائصها كيفًا وكمًا، مهتمًا بماضيها وحاضرها ومستقبلها.(٢)

ب- المنهج التحليلي:**Analytical Method** الذي يعنى بتفسير النصوص والآراء الخاصة بالموضع، وتحليلها تحليلًا دقيقًا يجلو الغموض عنها.

ج- المنهج المقارن: **Comparative Method** وذلك بتحديد أوجه الاتفاق والتباين بين الأفكار المختلفة.

د- المنهج الجدلي النقدي:**Dialectical criticism method** ويقوم المنهج الجدلي على المحاورات والمشاورات التي يعرض لها الموضوع، والهدف من وراء النقد: "تمييز الصواب من الخطأ، بقيام الباحث بتحليل الآراء وتمييزها، مبيناً أوجه القوة والضعف في تلك الآراء".(٣)

---

(١) مناهج البحث العلمي، الدكتور/ عبد الرحمن بدوى، صـ٥، طبعة سنة ١٩٦٣م، دار النهضة العربية، مصر.

(٢) مناهج البحث الفلسفي، الدكتور/ محمد أحمد مصطفى السرياقوس، صـ٢٦، طبعة سنة ١٩٩٥م، دار الثقافة للنشر، القاهرة.

(٣) البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة"دراسة مقارنة بين التصور الإسلامى والفكر الوضعى"الدكتور/ عبدالله على سمك، صـ١١٠،الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣م، بدون ناشر.

هذه هي المناهج المستخدمة في البحث، أما منهج الباحث في عرض هذا الموضوع ومعالجته فكان على النحو التالي:
يدور محور هذا البحث في الدرجة الأولى حول ما يعتري العقل من أوهام وأغلوطات، وأن ثمة عوامل هي المسئولة عن ذلك، يجب الخلاص منها.

وحول هذه الفكرة قامت دعائم هذا البحث، لتثبت آراء العلماء في هذه القضية، وكيفية تطهير العقل من أدران الأوهام، وأوضارها، وذلك في جد وتركيز وتسلسل وترابط، كمقدمات منطقية ضرورية لهذه النتيجة.

فالتمهيد وهو يتحدث عن مكانة العقل ودوره في الفكر الإسلامي، يحمل في طياته ما يدلل على أن حديث العلماء عن الأوهام التي تصيب العقل، هو من باب العناية به، وأن الهدف الحقيقي من وراء بحثهم في هذا الموضوع، رسم المنهج الصحيح للعقل؛ وذلك برفع العوائق والموانع التي تعطله عن وظيفته.

ولدراسة هذا الموضوع دراسة عميقة ومركزة، تخير الباحث ثلاثة من العلماء، لكل منهم منهجه وفكره في هذا الموضوع:

فالجاحظ وهو الأديب الفيلسوف، وأحد أبرز أعضاء الطائفة الإعتزالية، التي تهتم بالعقل وتقدسه، انبرى من بينهم مدافعًا عنه، كاشفًا عن الأسباب التي توهم العقل وتحيط به، وذلك في الفصل الأول، وأهم مايميز الجاحظ في هذه الدراسة شيئان:

الأول: أنه رصد الأسباب الداخلية، التي تنشأ عنها الأوهام العقلية.

الثاني: أنه استند في بحثه على النصوص الدينية، قرآن كريم وسنة نبوية.

أما الإمام الغزالي، فهو الصوفي الشافعي الأشعري، له أثر كبير وبصمة واضحة في العلوم العقلية كالفلسفة، وعلم الكلام، والمنطق، وأصول الفقه، ومع احترامه للعقل، إلا أنه يدعونا – في الفصل الثاني– إلى التعرف على مغالطات وأوهام العقل، وكيفية علاجه وتطهيره من هذه الآفة.

والذي جرَّ الغزالي لفتح باب هذه المسألة، تعرضه لقضية "الحسن والقبيح" وما دار حولها من اشكاليات، كانت كمقدمة دفعت الغزالي إلى رد توهم كثير من

الفرق والطوائف المختلفة، فيما اعتقدوه من آراء متفاوته، مع بيان وتفصيل ما ترتب على ذلك من مغالطات.

أما الفيلسوف الإنجليزي فرنسس بيكون، فقد رأى أن الإنسان معرض للوقوع في أربعة أنواع من الأخطاء العقلية، تكفل ببيان هذه الأوهام وحللها الفصل الثالث، الذي من خلالها نتعرف على أن هدف بيكون من وراء اهتمامه بهذه العلل، مساعدة بني الإنسان على استعادة سيطرته للعالم، بعقلية جديدة، ومنهج علمي قويم يخضع للملاحظة والتجربة، ثم تطهير العقل من كل الأوهام، والأخطاء التي انحدرت إليه من الأمم الخالية.

ولقد جاءت الخاتمة لتبرز أوجه الإتفاق والإختلاف بين وجهات النظر، خاصة وأن الإمام الغزالي ممن أثروا في الغرب بعلومهم ومعارفهم.

وفى ضوء هذا المنهج قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

فأما المقدمة والتي نحن بصددها فتتكون من أسباب اختياري للموضوع وأهميته، والمنهج المتبع فيه وخطة البحث.

وأما التمهيد فعنوانه: تعريف العقل ومكانته في الإسلام.

ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: تعريف العقل لغة واصطلاحًا.

المطلب الأول: تعريف العقل لغة:

المطلب الثاني: تعريف العقل في الإصطلاح:

المبحث الثاني: موقف فلاسفة المسلمين وعلمائهم من العقل.

المطلب الأول: موقف الوحي الإلهي من العقل.

المطلب الثاني: موقف فلاسفة المسلمين وعلمائهم من العقل.

الفصل الأول: العقل وأوهامه في فكر الجاحظ.

ويتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول: مكانة العقل عند الجاحظ.

المبحث الثاني: أوهام العقل وأسبابها عند الجاحظ.

الفصل الثاني: العقل وغلطاته في فكر الإمام الغزالي.

ويتكون هذا الفصل من مبحثين:
المبحث الأول: مكانة العقل عند الإمام الغزالي.
المبحث الثاني: غلطات العقل وأسبابها عند الإمام الغزالي.
الفصل الثالث: أوهام العقل وأسبابها عند فرنسيس بيكون.
ويتكون هذا الفصل من مبحثين:
المبحث الأول: نشأته وفلسفته.
المبحث الثاني: أوهام العقل وأسبابها عند فرنسيس بيكون.
الخاتمة: وفيها نتائج البحث وفوائده.

هذا ولا يسع الباحث إلا أن يردد مع نبي الله سليمان- عليه السلام- قول ربنا تبارك وتعالى:(**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**)[١].

(١) سورة النمل، الآية:١٩.

# التمهيد

# تعريف العقل ومكانته في الإسلام

**ويتكون من مبحثين:**

**المبحث الأول:** تعريف العقل لغة واصطلاحًا.

**المطلب الأول:** تعريف العقل لغة.

**المطلب الثاني:** تعريف العقل اصطلاحًا.

**المبحث الثاني:** مكانة العقل في الإسلام.

**المطلب الأول:** موقف الوحي الإلهي من العقل.

**المطلب الثاني:** موقف فلاسفة المسلمين وعلمائهم من العقل.

# التمهيد
# تعريف العقل ومكانته في الإسلام

## المبحث الأول: تعريف العقل لغة واصطلاحًا.

### المطلب الأول: تعريف العقل لغة:

العقل في اللغة: المنع والحبس [١] فالعقل مصدر عقلت البعير بالعقال أعقله عقلاً، والعِقال: حبل يُثنَى به يد البعير إلى ركبتيه فيشدُّ به، ويقال للمخاطب: أعقل ما يقال لك، أي احصر معرفته واحبسه لئلا يذهب عنك، ويسمى أيضًا حجرًا؛ لأنه يحجر الإنسان عن ارتكاب الخطأ.

يقول الجاحظ في هذا السياق: "وإنما سُمّي العقل عقلاً وحجراً. قال تعالى:﴿ **هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾[٢]لأنه يزمّ اللسان ويخطمه ويشكله ويربثه ويقيد الفضل ويعقله عن أن يمضي فرطًا في سبيل الجهل والخطأ والمضرة، كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم".[٣]

وأصل العقل أيضًا: الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعِقَال، وعَقْل الدّواء البطن، وعَقَلَتِ المرأة شعرها، وعَقَلَ لسانه: كفّه، ومنه قيل للحصن: مَعْقِلٌ، وجمعه مَعَاقِل.[٤]

وسمِّي عقلُ الإنسان وهو تمييزه الذي به فارق جميعَ الحيوان عقلاً؛ لأنه يعقله، أي يمنعه من التورط في الهَلَكة ، كما يعقل العقالُ البعيرَ عن ركوب رأسه.[٥]

---

(١) لسان العرب، العلامة/ ابن منظور، جـ١١صـ٤٥٨، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت- لبنان.

(٢) سورة الفجر، الآية:٥.

(٣) الرسائل الأدبية، الأديب والفيلسوف/عمرو بن بحر الجاحظ، صـ٨٨، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٣هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، صـ٥٧٨، تحقيق/ صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ، دار القلم والدار الشامية، بيروت – لبنان.

(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، جـ١صـ١٥٨، تحقيق : محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى سنة٢٠٠١م ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

**المطلب الثاني: تعريف العقل اصطلاحًا:**

فقد اختلف العلماء في تعريف العقل وحقيقته؛ لكونه اسم مشترك لمعانٍ عدة فهو: ملكة أي هيئة راسخة تدرك بها العلوم.(١)

وهو: العلم بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين، أو مطلق الأمور، والحق أنه نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية(٢) وهو أيضًا: جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات.(٣)

والعقل يقال: للقوة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ.(٤)

وقال الجرجاني العقل:"جوهر مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا، وقيل: العقل: جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقًا ببدن الإنسان، وقيل: العقل: نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل: العقل: جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير... والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الفانيات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة".(٥)

وهو عند الجاحظ: آلة الاعتبار والتفكير والمآخذة، فهو يقول" إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة، والإنسان والسّبع والحشرة...إنما هو الاستطاعة والتمكين، وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة... وما أعطاه الله العقل إلا للاعتبار والتفكير؟!"(٦)

---

(١) أسنى المطالب في شرح روض الطالب،جـ٤صـ٥٨،زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري،دار الكتاب الإسلامي.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادى، جـ١صـ١٠٣٣، تحقيق/محمد نعيم العرقسُوسي وآخرين، الطبعة الثامنة سنة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

(٣) أدب الدنيا والدين، صـ٨.

(٤) المفردات في غريب القرآن، صـ٥٧٧.

(٥) التعريفات، الشريف الجرجاني، صـ١٥١ ،١٥٢، تحقيق/ جماعة من العلماء، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

(٦) الحيوان، الأديب والفيلسوف/عمرو بن بحر الجاحظ جـ٥ صـ ٢٨٦، ٢٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان

ولعل أجمع وأدق ما قيل في معنى العقل قول الغزالي ومن وافقه بعدم الطمع في حده بحد واحد يحيط به؛ لأنه اسم مشترك يطلق على عدة معان:

أحدها: إطلاقه على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية وتدبير الأمور الخفية.

والثاني: إطلاقه على بعض الأمور الضرورية. وهي التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

والثالث: إطلاقه على العلوم المستفادة من التجربة، فإنّ من حنكته التجارب يقال عنه أنه عاقل من لا يتصف بذلك يقال عنه غبي جاهل.

الرابع: إطلاقه على ما يوصل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور، بقمع الشهوات الداعية إلى اللذات العاجلة التي تعقبها الندامة، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً.

والخامس: إطلاقه على الهدوء والوقار، وهي هيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه. فيقال: فلان عاقل، أي عنده هدوء ورزانة.[١]

---

(١) المستصفى، الإمام/ الغزالي، صـ٢٠، تحقيق/ محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان؛ إحياء علوم الدين، جـ١صـ٨٥، دار المعرفة – بيروت.

اما الفلاسفة فان للعقل عندهم معاني:

الأول: أن العقل جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها.(١)

الثاني: أنه قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني، وتأليف القضايا والأقيسة والفرق بينه وبين الحس أن العقل يستطيع ان يجرد الصورة عن المادة، وعن لواحق المادة، اما الحس فانه لا يستطيع ذلك.(٢)

الثالث: أن العقل عبارة عن قوة الإصابة في الحكم، والقدرة على تمييز الحق من الباطل.(٣)

الرابع: أن العقل قوة طبيعية للنفس متهينة لتحصيل المعرفة العلمية، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة الى الوحي والايمان.

الخامس: أنه عبارة عن مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة كالادراك، والتداعي، والذاكرة، والتخيل والحكم والاستدلال.(٤)

السادس: وفيه معان ثلاثة يطلق عليها الجمهور اسم العقل، فيقال: عقل لصحة الفطرة الأولى في الإنسان، فيكون حده: أنه قوة بها يوجد التمييز بين الأمور القبيحة والحسنة، ويقال: عقل لما يكسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية، فيكون حده: أنه معان مجتمعة في الذهن تكوّن مقدمات تستنبط بها المصالح والأغراض، ويقال عقل لمعنى آخر، حده: أنه هيئة محمودة للإنسان في حركاته وسكناته، وكلامه واختياره.(٥)

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية، صـ١٦٥، تحقيق/ محمد عبدالهادي أبو ريدة، طبعة سنة ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م، دار الفكر العربي.

(٢) المعجم الفلسفي، الدكتور/ جميل صليبا، جـ٢صـ٨٦، طبعة سنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، الشركة العالمية للكتاب، بيروت – لبنان.

(٣) مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، صـ١٠٩، ترجمة/ محمود محمد الخضيري، تقديم ومراجعة الدكتور/ محمد مصطفى حلمي، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨م، دار الكتاب العربي، مصر.

(٤) المعجم الفلسفي، جـ٢صـ٨٩.

(٥) تسعة رسائل في الحكمة والطبيعيات، الشيخ الرئيس/ ابن سينا، صـ٧٩، الرسالة الرابعة في الحدود، الطبعة الثانية ، دار العرب للبستاني، مصر.

**المبحث الثاني: مكانة العقل في الإسلام.**

**المطلب الأول: موقف الوحي الإلهي من العقل.**

إن العقل هو أساس الدين، ومنبع العلم والأخلاق، وعليه قامت الحضارات، وازدهرت المدنيات، وما أبلغ قول الإمام الماوردي(١) إذ يقول:" إعلم بأن لكل فضيلة أسًا، ولكل أدب ينبوع، وأس الفضائل، وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عمادًا، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مديرة بأحكامه"(٢) ولهذا شرف الله العقل، وأعلى مكانته، ورفعه إلى مكانة سامية، ومنزلة رفيعه.

والرسالات السماوية عامة، والرسالة الخاتمة خاصة، جاءت لتوقظ العقل، وتحرك الفؤاد، فلا سبيل لإقناع الناس بالمعجزات الحسية فقط، فالمعجزات دورها محدود في تحويل الناس من الشرك إلى التوحيد، فلم يبق سوى دعوة العقل، ومحاولة إقناعه بالحجة والبرهان؛ ليحصل اليقين.

فسيدنا إبراهيم-عليه السلام- لما أراد أن يبطل قول قومه بربية الكواكب، مال إلى طريق العقل واستدراجهم لإستماع الحجة؛ لكي يتمكن من ذكر الدليل العقلي على فساد عقيدتهم، ولا أدل على ذلك من أفول الكواكب؛ لكونه يدل على الحدوث من حيث إنه متحرك، ومتى ثبت بأفول الكواكب حدوثها، وثبت في بداهة العقول، أن كل ما كان محدثًا، فإنه يكون في وجوده محتاجًا إلى الغير،

---

(١) الماوَرْدى: علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، نسبته إلى بيع ماء الورد، أقضى قضاة عصره في أيام القائم بأمر الله العباسي، من المعلماء الباحثين إصحاب التصانيف الكثيرة النافعة ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وتوفي بها عام خمسين وأربعمائة من الهجرة عن ست وثمانين سنة.(طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، صـ١٢٠، تحقيق/ سليمان بن صالح الخزي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية؛ سيرة أعلام النبلاء،الإمام/ شمس الدين الذهبي، جـ١٨صـ٦٤، تحقيق/ مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان، جـ٣ صـ٢٨٢، تحقيق/إحسان عباس،الطبعة الأولى سنة١٩٠٠م، دار صادر، بيروت- لبنان)

(٢) أدب الدنيا والدين، أبي الحسن الماوردي، صـ٦، تحقيق/ محمد كريم راجح، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، دار أقرأ، بيروت – لبنان .

فوجب القطع باحتياج هذه الكواكب في وجودها إلى غيرها، ومتى ثبت هذا المعنى امتنع كونها أربابًا وآلهة(١) فلهذا السبب،استدل إبراهيم – عليه السلام – بأفولها على امتناع كونها أربابًا وآلهة.

وهذا المنهج في الاستدلال، استخدمه – أيضًا – سيدنا إبراهيم مع الذي حاجه في ربه حتى أبهته، وأصبح مغلوبًا لا يجد مقالاً، وكذلك نراه يحاول إيقاظ عقول قومه، حينما كسر أصنامهم، وطلب منهم سؤال كبيرهم، فقد كان حاضرًا وقت الاعتداء عليهم، فإن كان هؤلاء عقلاء فقد عرفوا أن تلك الأصنام، لا تسمع، ولا تبصر، ولاتنفع، ولاتضر.

إن هذا المنهج العقلي، يعرب بوضوح المكانة، والشأن اللذين أعطاهما القرآن الكريم للعقل،

وكثيرًا ما دعا إلى التدبر في الكون ونظامه وأسراره، الأمر الذي به يصل الإنسان من خلال الصنعة على الصانع.

كما أخذ القرآن الكريم ينادي أصحاب العقول النيرة، والألباب المستنيرة في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، وهذا يعني ما للعقل من قيمة وفاعلية "وإننا إذا ذهبنا نستقصي الدلائل على مكانة العقل في الإسلام، فسنطر إلى استعراض القرآن كله".(٢)

فلقد رفع الإسلام من مكانة العقل، حتى أصبح واضحًا أن من خصائص الإسلام الأولى، أنه دين يقوم على العقل، ويبني الإيمان على التفكير الصائب، والنظر العميق.(٣)

إن النزعة العقلية واضحة في الفكر الإسلامي، فالقرآن الكريم ليس هو المنطلق لصياغة علم الكلام الإسلامي، والفلسفة الإسلامية فحسب، بل هو المنبع لكل فكر سوِّي، يقول الدكتور/ محمد عماره:" التيار العقلاني في حضارتنا العربية الإسلامية – وفرسانه المعتزلة – قد انطلقوا على درب التفلسف، والإبداع

---

(١) مفاتيح الغيب، الإمام/ فخر الدين الرازي، جـ١٣صـ٤٤، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) ظلام من الغرب، الشيخ/ محمد الغزالي، صـ٣١، طبعة سنة ١٩٨٦م، دار الشهاب.

(٣) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الشيخ/ محمد الغزالي، صـ٢١٩، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان.

الفلسفي، من النقل – أي القرآن الكريم – الذي أعلى مقام العقل، كما صاغوا "علم الكلام الإسلامي" أو"علم التوحيد" فلسفة إسلامية مؤسسة على الوحي الإلهي.(١)

لذلك كان العقل أمضى الأسلحة التي شهرها المفكرون العرب في ظل الإسلام، سواء كان ذلك في: تثبيت دعائم المنهج الفلسفي لديهم، أو في محاولة دحضه ونقضه وفضه.

ولقد كان النبي– ﷺ– يقدس العقل، ويجله، ويرى أن قيمة الإنسان في عقله، وفي هذا يقول ﷺ:"**كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه**"(٢) فقد جعل النبي– ﷺ – مرؤة الإنسان، وشيمه، في عقله.

كما أكد النبي–ﷺ– على أن العقل هو مناط التكليف، وذلك في سؤاله أصحابه عن"ماعز بن مالك الذي اعترف بالزنا، فأرسل النبي– ﷺ – يسأل عن أهليته فقال:"**أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا، فَسَأَلَ عَنْهُ: فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ**"(٣) وهذا الحديث، يرفع من قيمة العقل، ويجعله مناط التكليف، فلا مؤاخذة على من لا عقل له، وهذا يدل على أهميته، إذ يترتب علي وجوده المسئولية، والمسائلة من الله تعالى.

وإذا نظرنا إلى سنة النبي– ﷺ– الفعلية، نراه قد مارس الاستدلال العقلي، وذلك حينما أتاه أعرابي من بني" فَزَارَةَ " وقال له:" **إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ**

(١) العقلانية الإسلامية، الدكتور/ محمد عمارة، صـ٢٤–٢٧، مجلة العربي، العدد ٣٤١، سنة ١٩٨٧م.

(٢) المسند، الإمام/ أحمد بن حنبل، جـ٨ صـ٤١٦، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م، دار الحديث، القاهرة – مصر.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الحدود والديات، بَابُ: حَدِّ الزِّنَى جـ٥ صـ١٢٠، دار الجيل، بيروت – لبنان.

**عِرْقٌ**"[1] بمقتضى هذا الحديث، فإن قانون الوراثة لا يفرق بين الحيوان الأعجم، والإنسان، فقد تظهر بعض الصفات على الأبناء نتيجة وجودها في أحد أسلافهم مع ظهورها في آبائهم، وأجدادهم، وقد قاس النبي-ﷺ- ذلك على وجود هذه الحالة في الإبل، ومادام الإنسان كائنًا طبيعيًا، فإن القوانين الطبيعية تنطبق عليه كما تنطبق على الكائنات الحية الأخرى.

ومن هذا الباب- أيضًا- قياسه - ﷺ- وجوب قضاء حق الله، على وجوب قضاء الدين بين العباد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما"**أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ:إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: "نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ**"[2] فالقياس المستخدم في أحاديث النبي- ﷺ- هو أحد الإستدلالات العقلية.

وفي القرآن الكريم، آيات ترفع من شأن العقل، فتدعوه إلى الإيقاظ، والتدبر، والتفكر،قال الله
تعالى:(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)[3] وقال تعالى:( **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ**)[4] وقال تعالى: (**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**

---

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ: الطَّلاَقِ، بَابُ: إِذَا عَرَّضَ بِنَفْيِ الوَلَدِ، جـ٧ صـ٥٣، كِتَابُ: الحُدُودِ، بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّعْرِيضِ، جـ٨ صـ١٧٣، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر، الطبعة الأولى سنة١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة؛ صحيح مسلم، كِتَابُ: اللِّعَانِ، باب: إذا عَرَّضَ بنفي الولد، جـ٤صـ٢١١،

(٢) صحيح البخاري، كتاب: جزاء الصيد، بَابُ: الحَجِّ وَالنُّذُورِ عَنِ المَيِّتِ، وَالرَّجُلُ يَحُجُّ عَنِ المَرْأَةِ، جـ٣ صـ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٦٤.

(٤) سورة يونس، الآية:١٠١.

**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)**(١) وقال تعالى:(**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**).(٢)

**المطلب الثاني: موقف فلاسفة المسلمين وعلمائهم من العقل:**

لقد بلغ تمجيد الفلاسفة للعقل إلى حد دفعهم إلى القول: أن الله عقل، وهو المصدر لجميع العقول، يقول ابن سينا:" أن واجب الوجود عقل وعاقل ومعقول ... ولما كان عقلًا فالذي يصدر عنه عقل".(٣)

والعقل هو أعلى قوى النفس عند ابن سينا، فهو يعمل على الارتقاء بالذات، وإدراكها إدراكًا حقيقيًا، يقول ابن سينا:" إن وحدة العقل تتجلى مباشرة في شعورنا بأنفسنا، وإدراكنا لذاتنا إدراكًا خالصًا، والعقل لا يترك قوى النفس الدنيا في مكانها، بل هو يرتقي بها".(٤)

ومن هنا يقول ابن سينا بسلطان العقل، وتغلبه على سلطان الروح، حتى إنه ليرى في العقل قدرة الوصول إلى الملكوت.

يتجلى ذلك في قصة "حي بن يقظان" ففي هذه الرواية، أظهر ابن سينا مكانة العقل، وأعلى من شأنه، وجعله السبيل، والمنقذ للوصول إلى الدراجات العلى، إن استطاع التغلب على شهواته، وأخضعها لحكم العقل.

---

(١) سورة الحج، الآية:٤٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣ ،٤.

(٣) شرح كتاب النجاة، فخر الدين الإسفراييني النيسابوري، صـ٢٦٥،٤١٥، تحقيق الدكتور/ حامد ناجي اصفهاني، طبعة سنة ١٣٨٣م.

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام، الدكتور/ ت.ج. دي بور، صـ٢١٨، ترجمه وعلق عليه الدكتور/ محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٤م، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان.

كما تتجلى قيمة العقل عند هذا الفيلسوف، في محاولة إظهاره في موقف المدافع، والقاهر للقوة البدنية، الأمارة للغضب والشهوة؛ وذلك في قصة "سلاما وأسال" وخلاصتها: أن سعادة الإنسان في الانصياع لأوامر العقل، والأعراض عن الشهوات.

**أوهام العقل وقيوده من وجهة نظر ابن سينا:**

يعتقد ابن سينا، أن من ضمن طرق الوصول إلى السعادة، تحطيم القيود التي فرضتها الأجيال على العقل.

فالعقل يتميز بمميزات هائلة تجعله يدرك الأشياء كما هي على حقيقتها، ويصل إلى عالم العقول المشرقة، ولن يتسنى له ذلك إلا بعد تحطيم القيود المقبِّلة له، وعندها يتمكن من تأدية رسالته حرًا طليقًا، وهذه القيود هي:

١- جعل التكليف عقليًا ٢- تعديل فكرة القدر ٣- نفي بعث الأجسام

أما القيد الأول فقد أراد ابن سينا أن يرفع من قدر الإنسان، وأن يعلي قدره، فاعتبر التكليف واجبًا عقليًا لا أمرًا إلهيًا، ومن وجهة نظره أن ذلك يجعله حرًا طليقًا لا عبدًا أسيرًا.(١)

ومفهوم ابن سينا للتكليف، والغرض منه مخالف لما هو مستقر عند المسلمين، فهو عندهم موضوع لمصالح العباد على الإطلاق والعموم، في العاجل والآجل، وهو أمر إلهي؛ غايته حفظ مقاصد في الخلق.(٢)

---

(١) وحجته في ذلك: أن البارى منزه عن النقائص، والغاية فى التكليف من النقائص، فالبارى إذن منزه عن الغاية فى التكليف: أما الأولى: فضرورية، ومع ذلك نقول: أن الباري منزه عن النقائص؛ لسببين:الأول: لأن النقص عيب، والعيب محال عليه تعالى والثاني: لكون النقص من صفات الحوداث، والله -تعالى- منزه عن المماثلة، والمشابهة للحوداث، لأنه واجب الوجود، أما الثانية: فلأن العالي لاغرض له فيمن دونه، بل إن العكس هو الواقع والصحيح، إذ أن ما دون العالي هو الذي يستفيد كمالًا، وبناءً عليه فإن الله -تعالى- لا غاية له في الوجود، فهو الغاية لكل موجود.

(٢) وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: الأول: مقاصد ضرورية الثاني: حاجية الثالث: تحسينية.

فأما الضرورات، فإنه لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا؛ بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد، وفي الآخرة تؤدي إلى فوات النجاة والنعيم، وحصول الخسران المبين، ومجموع هذه الضرورات خمسة هي: حفظ الدين، والنفس، =

القيد الثاني: تعديل فكرة القدر.

من منطلق تمجيد ابن سينا للعقل، ورفع الحجب عنه، فقد رأى أن ما يقول به "المتكلمون" حول قضية القدر، شطط من القول بين غال في إثباته لله إلى حد القول بالجبر، ونفي أي إرادة للعبد، ومفرط فيه إلى حد نفيه عن الله، وإثبات الحرية المطلقة للإنسان في اختيار أفعاله، فالأول هو قول الجبرية(١) والثاني ينسب للمعتزلة.(٢)

---

=والنسل، والمال، والعقل.أما الحاجيات: فإنه يفتقر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي-غالبًا- إلى الحرج. وأما التحسينيات: فهي من الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.(توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله التميمي، جـ١صـ٨٢، الطبعة الخامسة سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة) ونقول: لو سلمنا جدلًا نفي الغاية، ففي هذه الحالة من المستحيل أن يكون الله قد خلق الناس ليعرفوه ويعبدوه، ولايمكن أن يكون قد كلفهم بمعرفته وعبادته، وهذا كائن بالفعل، فدل على الغاية، وهي التعريض للثواب؛ لأنه لولم يكن كذلك لما كان حسنًا؛ لأن التكليف إن خلا من غاية كان عبثًا، وإن كان لغاية فيها مضرة كان قبيحًا، فلابد أن يكون تعريضًا للنفع وهو: الوصول إلى الثواب المستحق بالتكليف.

(١) أهم فرق الجبرية هم الجهمية الذين يؤكدون على أن العباد مجبورون على أعمالهم، لا قدرة لهم، ولا أراده، ولا اختيار، والله وحده هو خالق أفعال العباد، يقول الجهم بن صفوان:"لا فعل ولا عمل لأحد غير الله- تعالى- وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز"(الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، الإمام/عبدالقاهر الأسفراييني، صـ٢١١، تحقيق/ محمد محي الدين عبدالحيد، طبعة سنة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان) ويقول أيضًا:" إن الإنسان لا يقدر على شئ، ولا يوصف بالإستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له، ولا إرادة، ولا إختيار، وإنما يخلق الله - تعالى- الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازًا، كما تنسب إلى الجمادات"(الملل والنحل، الإمام/الشهرستاني،جـ١ صـ٨٧، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، الطبعة الثانية سنة١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، دار المعرفة، بيروت- لبنان )

(٢) تقول المعتزلة: إن للعبد مشيئة وإرادة، بها يخلق أفعاله، وليس لله دخل في خلق أفعال العباد، يقول القاضي عبدالجبار:" اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم، وقعوهم، حادثة من جهتهم، وأن الله-عز وجل- أقدرهم على ذلك، ولا فاعل لها ولامحدث سواهم، وأن من قال: إن الله - سبحانه- خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه" =

أما ابن سينا فله رأي وسط بين المعتزلة والجبرية، فهو يرى: أن النظام الكلي للعالم مقدور لله – تعالى– وقد أبدعه على شكل ينطوي على الخير والشر، أما الجزئيات أي: أفعال الناس، فهي منسوبة إلى فاعلها، لازمة لهم، ولا علاقة لها بأفعال الباري؛ فإنه –تعالى– لا يفيض عنه سوى الخير والفيض، فإذا عجز الناس عن تلقي الخير الفائض، أو تفاوتوا في تلقيه؛ فذلك راجع إلى نقص فيهم، وقصور في قابلياتهم.

فللعبد قدرة وإرادة، وله الحرية في إختيار أفعاله حتى يتحمل مسئوليتها، ويتثنى لله – عز وجل– أن يحاسبه عليها، هذه القدرة في نظر ابن سينا محددة بخلاف القدرة العامة الشاملة والتي لا تكون إلا لله تعالى.

القيد الثالث: أراد ابن سينا أن يحرر العقل الإنساني من الخوف والقلق، فقال بخلود النفس الإنسانية، وعدم موتها، وفنائها بموت البدن وفنائه، والمعاد في نظره هو: عودة هذه النفس إلى عالمها، أما الثواب والعقاب فلا يجوز أن يكونا على نحو ما يعتقد المتكلمون؛ لأنهما في نظره عبارة عن لذة وألم عقليين(١) فهو يقول:" إن للنفس سعادة وشقاوة بعد الموت".(٢)

أما ألوان العقاب والعذاب، والتي جاء به الشرع الشريف، فإنها محالة في – عقيدة ابن سينا– ولاتصدر إلا عمن أراد التشفي من عدوه على حد قوله.

---

=(المغني في أبواب التوحيد والعدل، عبدالجبار بن أحمد الهمزاني، جـ٣ صـ٨، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠هـ –١٩٦٠ م، دار الثقافة والإرشاد، مطبعة دار الكتب، مصر) يقول القاسم بن إبراهيم الرسي في رسائل التوحيد، تحت عنوان" نفي التشبيه عن الله الواحد الحميد" ردًا على من قال: إن الله هو الخالق لأفعال العباد:" ولو كان هو الفاعل لأعمالهم، الخالق لها، لم يخاطبهم، ولم يعظهم، ولم يلمهم على ما كان منهم من تقصير، ولم يمدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن، ويقول الشريف المرتضى في رسائل التوحيد، تحت عنوان" إنقاذ البشر من الجبر والقدر":"إن الله– تعالى– لم يفعل أفعال عباده، وفعل العباد غير فعل رب العالمين"(رسائل العدل والتوحيد، جـ١صـ١٤٥ ،٣٠٦، تحقيق الدكتور/ محمد عمارة، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، دار الشروق، مصر)

(١) تهافت الفلاسفة، الإمام/ أبو حامد الغزالي، صـ٢٨٢، تحقيق الدكتور/سليمان دنيا، دار المعارف، مصر.

(٢) شرح كتاب النجاة، صـ٤٧١.

ومع أن ابن سينا مطمئن إلى آرائه، ويختص بها من يريد لهم من الخير ما أراده لنفسه، ولكن هذه المسائل الثلاثة لا تلائم الإسلام بوجه، فهي تكذيب للأنبياء، وتقويضًا لدعائم الإسلام؛ إذ أن هذه القضايا ثابته بالنقل والعقل والفطرة، فهذه التصورات ليست أوهامًا إلا في عقل ابن سينا فقط لا تتعداه إلى غيره؛ لأن العقلاء قد اتفقوا على أنها حقائق ثابته، وقد أقرها العقل الرشيد، وعمل بها لما لها من فوائد تعود عليه.

ولقد تأثر الفارابي بنظرية العقل الأرسطية، فقد تحدث أرسطو عن العقل الذي يعد المبدأ الأول للموجودات كلها، وعلى هذا المبدأ تتوقف كلا السماء والطبيعة(١) كما أننا نجد أرسطو يصف العقل الفعال دومًا بأنه في مرتبة الألوهية، إن لم يكن عقلًا إلهيًا صرفًا أي أنه يضيف إلى العقل الفعال كل الصفات التي يضيفها إلى الألوهية(٢) ومن طبيعة هذا العقل عند الفارابي، أنه يعقل ذاته، ولا يمكن أن يوجد بين الموجودات ما هو أكمل منه؛ لأنه العقل الأول، والموجود الأول، والواحد الأول، والحق الأول(٣) ولمكانة العقل عند الفارابي كتب عنه:"رسالة في العقل" .

ويرى "ابن رشد" أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات، وأن في القرآن ما يدل على وجوب استعمال العقل، والقياس العقلي، فهو يقول:" فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وهذا النحو من النظر – وهو ما دعا إليه الشرع وحث عليه – هو أتم أنواع النظر، بأتم أنواع القياس، وهو المسمى برهانًا".(٤)

---

(١) المقالة الثانية عشرة، أرسطو، صـ١٧٤، ترجمة/ ماجد فخري، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م، المكتبة الأهلية.
(٢) أرسطو، عبد الرحمن بدوي، صـ٢٥١، طبعة سنة١٩٨٠م، دار القلم، بيروت – لبنان.
(٣) رسالة في العقل، الفارابي، صـ٣٦، تحقيق/ موريس بويج، طبعة سنة ١٩٣٨.
(٤) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال، أبو الوليد محمد بن رشد، صـ٢٣، تحقيق الدكتور/ محمد عمارة، الطبعة الثالثة، دار المعارف.

ويعتبر الإمام الرازي[1] العقل من أجل، وأظهر نعم الله على الإنسان، فهو يقول في كتابه الطب الروحاني:" فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها، وبالعقل أدركنا ما يرفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا، ونصل إلى بغيتنا ومرادنا، وبالعقل استطاع الإنسان قيادة الطبيعة، وتسخيرها لمصالحه، وبما يعود عليه بالنفع، ويدفع عنه الضر، وبه نلنا الطب الذي فيه مصالح أجسادنا، وسائر الصناعات، وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا، والخفية المستورة عنا".[2]

والعقل عند المعتزلة له مقام رفيع، وسلطان مبين، فالمعارف كلها معقولة، وواجبة بنظر العقل،يقول أبو الهذيل العلاف[3] المعتزلي العقل هو:"القوة على أكتساب العلم،وبأنه القوة التي يفرق الإنسان بها بينه وبين باقي الأشياء[4]ويقول أبو علي الجبائي[5]:" العقل هو العلم".[6]

---

(١) محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري، المعروف بالفخر الرازي، أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، كان أشعريًا شافعيًا، أخرج من بلده بسبب اعتقاده ثم قصد ما وراء النهر ثم عاد إلى الري وكان بها طبيب حاذق له ثروة ونعمة، يذكر ابن كثير أن الكرَّامية وضعوا عليه من سقاه سماً فمات ، وكانت وفاته سنة ست وستمائة من الهجرة( البداية والنهاية، ابن كثير ،مج ٧ جـ ١٣صـ ٦٧، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، الطبعة السادسة ، سنة ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م ، دار الحديث ، القاهرة – مصر )

(٢) الطب الروحاني، الإمام/ أبي بكر الرازي، صـ٣٥، تحقيق الدكتور/ عبداللطيف العبد، طبعة سنة ١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية.

(٣) محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى، مولى عبد القيس، أبو الهذيل العلاف: من أئمة المعتزلة، ولد في البصرة واشتهر بعلم الكلام، له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات، توفي سنة خمس وثلاثون ومائتين من الهجرة.(الأعلام، جـ٧صـ١٣١)

(٤) فلسفة المعتزلة، ألبير نصري نادر ، جـ٢صـ٣٤، طبعة دار الثقافة، الأسكندرية، مصر.

(٥) الجُبَّائيّ: بالجيم المضمومة وبعدها باء معجمة بواحدة مشددة، أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن جمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان–ﷺ– شيخ طائفة الإعتزال، كان مولده في سنة خمس وثلاثين ومائتين من الهجرة، صاحب تصانيف ومقالات مشهورة،عاش ثمان وستين سنة وتوفي سنة ثلاث وثلثمائة(وفيات الأعيان ،جـ٤ صـ ٢٦٧)

(٦) فلسفة المعتزلة، جـ٢ صـ٣٥.

وبه يصل الإنسان إلى الله- تعالى- فمعرفة الله واجبة بالنظر والإستدلال؛لأن الدليل العقلي عند المعتزلة دليل وجوبي إلزامي، ولا يصح أن يجئ النقل مخالفًا للعقل، ولو أن تعارضًا ظاهرًا تبدى بين النقل والعقل للزم تأويل دليل النقل بما يوافق دليل العقل أو عملوا بدليل العقل، فليس ثمة ما يعارض العقل أبدًا، فهو – في نظرهم- يمكنه الإستقلال بأدراك الأحكام، والشرع إنما جاء مقويًا، ومؤكدًا لما أدركه العقل، مع العلم بأنهم لا ينكرون دور الشرع، وإنما يجعلونه تابعًا للعقل.

أما الفقهاء فقد أكبروا العقل، ودعوا إلى تعظيمه وإجلاله، وهذا يتجلى في اعتبارهم القياس والإجتهاد من الأصول والأدلة المتفق عليها بين الفقهاء وما هما إلا إعمالًا للعقل.

والإمام الأعظم" أبي حنيفة النعمان" قد جعل الرأي أصلًا من أصول الأحكام، حتى أطلق على مذهبه مذهب أهل الرأي، والإمام الشافعي ترك مذهبه القديم حين قدم مصر، استجابة لدعى العقل الذي أظهر له أشياء جديده، فقد سمع آراء دعته للخروج على الناس بآراء تتناسب مع الوقت والمكان.

وإذا نظرنا إلى الإمامين العظيمين: أحمد بن حنبل ومالك وجدناهما ياخذون "بالمصالح المرسلة" وهى قاعدة تقوم على اعتبار المعنى المعقول الموافق للمصلحة، ومن هنا يظهر قيمة العقل عند الفقهاء، فهو من مراجعهم، ومصادرهم في بناء الأحكام الشرعيه.

ولم يهمل المحدثون العقل، بل اعملوا عقولهم واجتهاداتهم في المرويات الحديثيه، فكشفوا عن عللها وآفاتها، وأعملوا عقولهم فقبلوا بعض المرويات وردوا الأخر، وقدحوا ومدحوا، كل ذلك من خلال حركاتهم لتمحيص السنة في ضوء منهج فكرى عقلي منظم.[1]

(١) العقل وفضله، الإمام/ أبي بكر بن أبي الدنيا، صـ٩، تحقيق/ لطفي محمد الصغير، دار الراية.

# الفصل الأول
# العقل وأوهامه في فكر الجاحظ

**ويتكون هذا الفصل من مبحثين:**

**المبحث الأول:** مكانة العقل عند الجاحظ.

**المبحث الثاني:** أوهام العقل وأسبابها عند الجاحظ.

# الفصل الأول

## العقل وأوهامه في فكر الجاحظ[(١)]

### المبحث الأول: مكانة العقل عند الجاحظ.

إذا تطرقنا إلى الأدباء الفلاسفة، وجدنا "الجاحظ" يتخذ في بحثه منهجًا عقليًا استمده من المدرسة الإعتزاليه التي أثرت في كل مناحي فكره، فهو يؤمن بسلطان العقل، ويجعله حكمًا في الأمور كلها، وأساسًا لتحصيل المعرفة الإنسانيه، ولا أدل على ذلك مما يلى:

١- أنه قد وجد عند أهل الرأى-وهم الساده الحنفيه-ما يوافق فكره وخطه المنهجى، فها هو يمدح الإمام الأعظم أبى حنيفه النعمان فيقول:" قد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عامًا، وهو لا يعدُّ فقيهًان ولا يجعل قاضيًا، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، حتي يصير حاكمًا على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان".[(٢)]

---

(١) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، ولدت في أول سنة خمسين ومائة في آخرها، من أئمة المعتزلة، تلميذ أبي إسحاق النظام، إليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية، مولده ووفاته في البصرة، كان عالمًا بالأدب فصيحًا بليغًا، واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة، قيل له الجاحظ؛ لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتو، وكان يقال له أيضًا الحدقي لذلك، مات والكتاب على صدره، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه، في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز، وقد جاوز التسعين.(معجم الأدباء، ياقوت الحموي،جـ٢صـ٢١٠٢، تحقيق/إحسان عباس، الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ-١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان؛وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،ابن خلكان،جـ٣صـ٤٧١؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي،جـ١٢صـ٢٠٨، تحقيق/مصطفى عبد القادر عطا،الطبعة الأولى سنة١٤١٧هـ،دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، صـ١٤٨، تحقيق/ إبراهيم السامرائي، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن؛ سيرة أعلام النبلاء، جـ ٩صـ٤١٣)

(٢) الحيوان، جـ١ صـ٦٠.

٢- يجعل الجاحظ العقل مقدمًا على النقل بمقتضى نظرية التحسين والتقبيح العقليين، فالحسن هو ما حسنه العقل وليس الشرع، والقبح ما قبحه العقل وليس الشرع، وفي ذلك يقول الجاحظ عن العقل:" به عرفنا حرمة الشهر الحرام، والحلال المنزل والحرام المفصل... وبه يستدل على صرف ما بين الشريين من النقصان وعلى فضل ما بين الخيرين من الرجحان...ولولا مكانه لم يثبت للرب ربوبيه، ولا لنبى حجه، ولم يفصل بين حجه وشبهه، وبين الدليل وما يتخيل في صورة الدليل، وبه يعرف الجماعه من الفرقة، والسنة من البدعة، والشذوذ من الإستفاضة ".(١)

ونلاحظ في قوله:" والتقليد مرغوب عنه في حجة العقل منهي عنه في القرآن "(٢) إن التقليد غير مقبول لدى الجاحظ، وسنده في ذلك عدم قبول العقل له أولًا ثم القرآن الكريم ثانيًا، يقول الجاحظ:" لا حجه إلا في عقل أو في كتاب أو خبر"(٣) ويقول:" ما يحرم في العقل يقبح في السماع ".(٤)

٣- أخذه بالقياس، وعدّه حجه عقلية، فهو يقول:" الذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن ولا بأدب الرسول- عليه الصلاة والسلام – ولم يفزع إلى ما في الفطن الصحيحة، وإلى ما توجبه المقاييس المطرده،والأمثال المضروبة، والأشعار السائرة، أولى بالإساءة، وأحق باللائمة"(٥) فالأدلة الشرعية عند الجاحظ حسب هذا القول: القرآن، السنة، الفطن الصحيحة، العقل، القياس... إلخ.

ويقول:" إنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، والسنة المجمع عليها والعقل الصحيحة، والمقاييس المصيبة ".(٦)

---

(١) الرسائل الكلامية، عمرو بن بحر الجاحظ، صـ٥٤، تحقيق الدكتور/علي بو ملحم، طبعة سنة ٢٠٠٢م، دار ومكتبة الهلال، بيروت– لبنان.

(٢) الرسائل الكلامية، صـ ١٧٢.

(٣) الرسائل السياسية، عمرو بن بحر الجاحظ ، صـ ٣١٠، تحقيق الدكتور/علي بو ملحم، طبعة سنة ٢٠٠٢م، دار ومكتبة الهلال، بيروت– لبنان.

(٤) الحيوان، جـ٤ صـ ٢٩١.

(٥) الحيوان، جـ ١ صـ ١٦.

(٦) الرسائل الأدبية، صـ٢٨٥.

٤- إن الحرية لابد منها ليقوم العقل بدوره المنوط به؛ لأنه على حد قول الجاحظ:" إذا أكره عمى"[١] فالحرية والإختيار، أو الإستطاعة والتمكين، هما الصفة المميزة للإنسان" فالفرق بين الإنسان والبهيمة، والإنسان والسبع، ليس هو الصورة، وإنما هو الإستطاعة والتمكين".[٢]

٥- ليس للإنسان -عند الجاحظ- شيمة أفضل من العقل" فإنما حمدت العلماء بحسن التثبت في أوائل الأمور، واستشفافهم بعقولهم ما تجيئ به العواقب، وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم".[٣]

هذا الحمد يبقي العلماء أهل الرأي، والفكر جديرين به حتى ولو أعتراهم الذلل في تحكيم عقولهم، فخطَّاء العاقل أفضل- عند الجاحظ- من إصابة الجاهل في نفسه، المختلط في تدبيره، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر.[٤]

ومع تقديس الجاحظ للعقل، نجده لا يسلم بعصمته، فهو القائل:" لا تنكر لنفسك أن تزل، ولعقلك أن يهفو".[٥]

---

(١) الحيوان، جـ٤ صـ ٤٨٢.

(٢) الحيوان، جـ٥ صـ٢٨٧.

(٣) رسائل الجاحظ، جـ١ صـ٩١، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، طبعة سنة ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٤) رسائل الجاحظ، جـ١صـ١٢١.

(٥) الرسائل الأدبية، صـ٣٤٧.

**المبحث الثاني: أوهام العقل وأسبابها عند الجاحظ.**

هناك في فكر الجاحظ بعض الأعراض التي تؤثر على عمل العقل وتعرقله، ومن ثم يقع في شباك الأوهام، وأهم هذه الأعراض ما يأتي:

**أولًا:** الصراع الدائم بين العقل وبين الشهوات والأهواء، والحاحظ لا يفتأ دائمًا أن يتحدث عن هذا الصراع الدائر حتى قيل عنه:"ولئن كان هنالك إحساس قوي ملك قلب الجاحظ، وبسط عليه أعنف السلطان؛ فإحساسه الحاد بأن العقل قوة لا تنفك في صراع متصل مع قوى ظلامية، إن اختلفت اختلافًا مدهشًا من حيث الجنس والشكل، اتحدت اتحادًا عجيبًا في مضمار التآمر على العقل، والتآلب عليه".(١)

ويلفت الحاحظ الأنظار إلى أن صراع العقل مع الشهوات، والأهواء هو سبب ما يواجهه من أزمات فيقول:" إنه لا شئ أصعب على العقل من مكايدة الطبائع، ومغالبة الأهواء، وأن مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع".(٢)

ويشير الجاحظ إلى أن الصراع بين العقل والطباع سجالًا، يصيب منها وتصيب منه، وعن ذلك يقول:" متى قويت الطبيعة على العقل أوهنته وغيرته، ومتي – أيضًا– فضلت قوى العقل على قوى طبائعه أوهنت طبائعه، ومتى كانت كذلك آثر الحزم والآجلة على اللذة العاجلة".(٣)

ولن يؤمن للعقل حتى ينتصر على خصومه، ويصبح ذا قوة تمكنه أن يقوِّم ما أعوج من طبائع النفس، وفي ذلك يقول الجاحظ:" لن تفي قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما أعوج منها، ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها، والبحث الشديد الذي يشحذها، والتجارب التي تحنكها، والفوائد التي تزيد فيها".(٤)

فحرية العقل في غلبته على الشهوات، أو اعتدال قوتا: العقل والشهوة " ففي الإنسان قوتان تتصارعان هما: العقل، والشهوة، والإنسان لا يكون حرًا إلا إذا

---

(١) رسائل الجاحظ، صـ٢١١ ،٢١٢.

(٢) الرسائل الأدبية، صـ٩١.

(٣) الرسائل الكلامية، صـ١١٦، ١١٧.

(٤) الرسائل الكلامية، صـ١٣٥.

تساوت قوتا العقل والشهوة، وإذا غلبت عليه الشهوات فَقَدْ فَقَدَ حريته، وإذا سيطر العقل على الشهوات فَقَدَ –أيضًا– حريته؛ لأنه يصبح ملزمًا بتنفيذ ما يمليه عليه المنطق والفكر.(١)

وإذا علمنا أن للعقل خصوم فمن المنصف أن ننتصر له من خصمه، والجاحظ كأديب، ومفكر، وفيلسوف، ناضل لتخليص العقل من العراقيل والآفات التي توقعه في الوهم، فكشف عن الأسرار، والنواميس التي من شأنها أن تطمس نور العقل، ورفع الستار عن ألوان المكر التي تزيغ بالعقول عن مواطن البر، فتحملها على إنفاق كنوز من الذكاء في صغير الأغراض، ومتسفل المقاصد.

**ثانيًا:** ما يعتري الذات الإنسانية من خلل: عضوي ونفسي.

أما الخلل أو الأعراض العضوية كسكر الشباب ويعنى الجاحظ بذلك عدم رؤية الإنسان في هذه المرحلة الحقيقة كما هى، مثله في ذلك مثل السكران، فإنه يخيل إليه الأمر بخلاف ما هو عليه، ومن صور هذه الحالة كما يقول الجاحظ:" بسط القدرة، وحميّا الحداثة، وطول الجدة، والوسامة في الصورة، والجمال في الهيئة، وهذه كلها أسباب تكاد أن توجب الإنقياد للهوى"(٢) والهوى يخامر العقل، ويخالطة، ويمنعه من التفكير السليم والمنطق القويم.

ومن الأعراض العضوية التي تؤثر في العقل الهرم؛ لأنه كما يقول الجاحظ:" آخذ بقسطه من جميع الأجزاء ألا ترى كيف يكل ناظره، وسامعه، وذائقه، وشامه، وهاشمه، وعامله، وكيف تنتقص على مرور الأيام قوته "(٣) وكل هذه الحواس مصدرها العقل، وضعفها دليل على ضعف العقل وتغيره، وفي هذه المرحلة يغشي الإنسان الوهم أو ما نسميه بالخَرَف، وقد قال الله– تعالى– عن هذه المرحلة: **{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا }**(٤) وهو التنكيث في الخلق وعنه قال ربنا تبارك وتعالى: **{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي**

---

(١) الرسائل الكلامية، صـ١٩.
(٢) رسائل الجاحظ، جـ١، صـ٩٢،٩١.
(٣) الرسائل الكلامية، صـ٢١٣.
(٤) سورة الحج، الآية:٥.

**الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}**[1] فلا يملك في أرذل العمر عقلًا كعقله الأول، فهو بمنزلة الصبي، غير أنه يعيش في ظلمات الوهم حتى يأتيه أجله المقدر.

وأما الأعراض النفسية فيذكر منها الجاحظ" الغضب"[2] الذى يسيطر على العقل، فيفعل به فعل السكر بالمخمور، يقول الجاحظ:" إن الغضب يموت صاحبه؛ لأن الغضبان أشد خطرًا على نفسه من السكران والمجنون"[3] فهو يعطل الحواس، ويطمس نور العقل فلا يري الأمور على حقيقتها، ولا يتدبر عواقبها، يقول الجاحظ للوزير ابن الزيات[4]، محذرًا له من الإنقياد للغضب:" إن الغضب يغلب العزم على قدر ما مُكِّن، ويحير اللب بقدر ما سلط، والغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور السكر لهله، والغضبان يشغله الغضب ويغلى به الغيظ، وتستفرغه الحركه، ويمتلئ بدنه رعده، وتتزايل أخلاطه، وتتحلّ عقده، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيده في دائه، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون ماده لفساده، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم "[5] فهيجان الغضب يوقف العقل عن التفكير السليم.

والوهم الذى يصيب الغضبان في هذه الحالة؛ أنه يطيش لينتقم ظنًا منه أن هذه قوة وهى في الحقيقة ضعف، بنص حديث النبي -ﷺ- الذي يقرر:" **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**"[6] فأجدع الناس

(١) سورة يس، الآية:٦٨.

(٢) الغضب لا يحصل إلا لأحد أمرين: أحدهما: فوات نفع، والثانى: توقع ضرر.

(٣) الرسائل الأدبية، صـ٣٥.

(٤) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والادب، من بلغاء الكتاب والشعراء، نشأ في بيت تجارة قرب بغداد، ونبغ حتى بلغ رتبة الوزارة، وعول عليه المعتصم في مهام دولته، وكذلك ابنه الواثق، مات ببغداد سنة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وكان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم.(سيرة أعلام النبلاء، جـ١١صـ١٧٣؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، جـ٥ صـ٩٤)

(٥) الرسائل الأدبية، صـ٣٤٦.

(٦) صحيح البخاري، كتاب: الأَدَبِ، باب: بَابُ الحَذَرِ مِنَ الغَضَبِ ،جـ٨ صـ ٢٨، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان ؛ صحيح مسلم، كتاب: الْبِرِّ=

وأقواهم، من يكظم غيظه عند الغضب، ولا يعتدى، وإن صور له الغضب أن القوة في الإنتقام، وهو المطلوب، فذلك هو الوهم بعينه؛ لأن القوة الحقيقية في تحكيم العقل؛ والعقل الرشيد في هذه الحالة يؤكد على أن القوة ليس في الإنتقام، وإنما في الصبر والعفو؛ لأن لذة العفو خير من لذة التشفي، إذ أن العفو يأتى بالحمد، والتشفي لا يأتي إلا بالندم والحسرة، ولو كل إنسان انتقم لنفسه لهوى عن منزلته وشرفه من حيث هو انسان كرمه الله، إلى درك السباع لا عقل له ولا فهم.

ومن هذه الأعراض" الحزن " الذي يذهب وعي الإنسان، ويبدد إدراكه، فالجاحظ يقول عنه إنه:" يفقد العقل"[1] ومثله الحب، الذي يعمي قلب صاحبه فلا يري إلا المحامد على الرغم من أنها قد تكون مساوئ، وقد قالوا في الأمثال: مراية الحب عمياء، كناية عن عدم رؤية الحقائق كما هي عليه، أو كما قال الجاحظ:"إن الحبيب كثيرًا ما يعشق غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا الموصوف البراعة والرشاقة، ثم إن سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجه، ولذلك قيل:" عين الهوى لا تصدق" وقيل:"حبك الشيئ يعمى ويصم"[2] وفي المثل:" الحب يرى الورد بلا شوك" وترى في الحياة الحسن يعشق القبيح والقبيح يحب الحسن، ويختار المختار الأقبح على الأحسن، وليس يري الإختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه".[3]

فللحب تأثير لا يختلف كثيرًا عن تأثير المخدرات، فغالبًا ما يتعرض المحب لنقص شديد في القدرة على التفكير السليم وعدم التركيز؛ والسبب في ذلك أن الحب كما أكدت الدراسات العلمية يؤثر على مناطق المسئولة عن الذاكرة والتركيز في المخ بحالات الكسل والخمول، وهو ما يحدث تمامًا عند تعاطى المخدرات وذلك يفسر لنا تغاضى بعض الأشخاص عن أخطاء من يحبون؛ لأنه لا يري الحقيقة بطريقة لا إرادية منه.

---

= وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، باب: فَضْلِ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَذْهَبُ الْغَضَبُ، جـ٨ صـ ٣٠.

(١) الآمل والمامول، الجاحظ، صـ٤٧.

(٢) رسائل الجاحظ، جـ٢، صـ١٦٧.

(٣) الرسائل الكلامية، صـ٧٩.

ومن الأعراض التي توقع في الوهم "البغض" الذي يقول عنه الجاحظ:" فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ، فالبغض – أيضًا– يعمي عن المحاسن"[١] وهذه حقيقة يقررها القرآن الكريم، فقد بين الله– تعالى– أن البغض أصم المشركين عن سماع الحق، وقبوله بقلوبهم، وأعمى أبصارهم، يقول الله تعالى:**{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}**.[٢]

والمعنى: ومن المشركين من يستمع كلام النبي–ﷺ–مع أنه كالأصم والأعمى من حيث انه لا ينتفع البته بذلك الكلام، يقول الإمام الرازى[٣]:"إن الإنسان إذا قوى بغضه لإنسان آخر، وعظمت نفرته عنه،صارت نفسه متوجهة إلى طلب مقابح كلامه،معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه...والعمى في العين معنى ينافى حصول إدراك الصورة، فكذلك البغض ينافى وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه، والوقوف على ما آتاه الله– تعالى– من فضائل".[٤]

يتولد من هذه البغضاء عرض آخر هو– أيضًا– مضلل للعقل ألا وهو" الحسد" وهو يحجب العقل عن إدراك حقائق الأمور، فالحسود ينكر دائمًا محاسن الخصم مع أنها ظاهرة للقاصي والداني، لكنه هو الوحيد الذي يراها مساوئ، لذلك يقول عنه الجاحظ:" الحاسد مجنون؛لأنه يحسد الحسن والقبيح...والحسد مسلوب المعقول بإزراء الضمير في كل حين وزمان ووقت".[٥]

فكل توجيهات الحاسد– إذًا– غير صحيحة؛ لأنه لا يملك زمام عقله، فالذي يملكه هو الحسد، يقول الجاحظ:" ما خالط الحسد قلبًا إلا لن يمكنه ضبطه ولا

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، صـ٩٣ طبعة سنة ١٤٢٣ هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
(٢) سورة يونس، الآية: ٤٢ ،٤٣.
(٣) محمد بن عمر بن الحسين بن على القرشي، المعروف بالفخر الرازي، ولد بالري وكان أشعريًا شافعيًا طبيبًا حاذقًا له ثروة ونعمة، يذكر ابن كثير أن الكرَّامية وضعوا عليه من سقاه سمًا فمات، وكانت وفاته في يوم الفطر بهراة في سنة ست وستمائة.(البداية والنهاية، مجـ٧،جـ١٣صـ٦٧؛ طبقات المفسرين، صـ٢١٤)
(٤) مفاتيح الغيب، جـ١٧صـ٨١.
(٥) الرسائل الأدبية، صـ٣٧٢.

قدر على تسجينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه، فهو أغلب على صحابه من السيد على عبده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره ".[١]

فكل هذه الأعراض تفسد العقل وتضعفه، وتمنعه من التمييز بين الحق والباطل.

**ثالثًا:** عدم إلتزام سمات المنهجية الصحيحة.

والمنهج هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حي يصل إلى نتيجه معلومه.[٢]

هذا هو المنهج العلمي الصحيح في التفكير، أما اللا منهجيه فإنها تؤثر على سير العقل، وتعلل من فاعليته، يذكر الجاحظ من ذلك: الحفظ والتقليد، عدم ترتيب المعارف وتناولها وفق المقاصد الأساسية، وكثرة الشك، والغلو في النزعة الحسية التجيربية، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

١- الحفظ: وهو يعطل ملكة الإستنباط، ويؤثر على باقى وظائف العقل، ولذلك كرهه الجاحظ، وقال عنه:" كرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الإستنباط والتفكير جودة الحفظ؛ لمكان الإتكال عليه، وإغفال العقل من التميز حتى قالوا:"الحفظ عزق الذهن"؛ ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدًا، والإستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة، والقضية الصحيحة، والحكم المحمود، أنه متى ادام الحفظ أضر ذلك بالإستنباط ".[٣]

والمتدبر يحتاج في استنباطه إلى التَّكَلُّف في إعمال العقل حال الإستنباط" إذ أنه مستخرج شيئًا كام مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مستنبط ".[٤]

---

(١) الرسائل الأدبية، صـ١١٩.

(٢) مناهج البحث العلمي، الدكتور/ عبد الرحمن بدوى، صـ٥.

(٣) الرسائل الأدبية، صـ٢٠٠.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، جـ٨ صـ٥٧١، تحقيق/أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى سنة١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

والإستنباط مطلوب، لكونه أحد وظائف العقل[١] التي تبصر بطريقة التكامل مع النصوص واستخراج الأحكام.

أما تعطيل العقل فقد ذمه الله– تعالى– في غير آية من آيات الذكر الحكيم، فقد قال عن الذين لا يتدبرون آيات الله المبثوثه في الكون وفي انفسهم **{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}**[٢]وقوله تعالى:**{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}**.[٣]

وقد بين الله– تعال– أن العلم الحقيقي، عند المستخرجين جواهر المعاني بدقائق الإستنباط؛ لذلك عد الله الإستنباط حجه، فقال تعالى:**{ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا }**[٤] فثبت هنا أن الله– تعالى– أمر المكلف برد الواقعه إلى من يستنبط الحكم فيها، ولولا أن الإستنباط حجة لما أمر المكلف بذلك، فثبت أن الإستنباط حجة، وأن النبى–ﷺ– والعلماء من بعده مكلفون بالإستنباط.[٥]

وإذا ثبت ذلك، فالتقليد آفه تصيب العقل؛ لأنه عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقدًا الحقيقة فيه، من غير نظر، وتأمل في الدليل؛ لذلك لا يصدر عن العقل معارف يقينيه.

(١) من وظائف العقل: الإدراك، التذكر، التخيل، الإستنتاج، التحليل، التركيب، الإستقراء، القدرة اللغوية، القدرة العددية أو الحسابية، القدرة العملية.
(٢) سورة الأعراف، الآية:١٧٩.
(٣) سورة الحج، الآية:٤٦.
(٤) سورة النساء، الآية:٨٣.
(٥) مفاتيح الغيب، جـ١٠ صـ١٦٠.

وهذا ما دعا الجاحظ للرد على من جعل التقليد والنشوّ والإلف لما عليه الآباء، وتعظيم الكبراء، معرفة ويقينًا بقوله:" ولقد أعيانا أن نجد هذه المعرفة إلا في الخاص من الرجال وأهل الكمال في الأدب".(١)

فالتقليد يعمى عن إدراك الحقائق، وقد ذم الله– تعالى – التقليد والمقلدين، وعابهم في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** }(٢) وقوله:{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** }(٣) وقوله:{ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ** }(٤) ثم ذكر ربنا– تبارك وتعالى– أن جميع الأمم تمسكوا بتقليد الآباء، فقال تعالى: { **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** }(٥) وقد فند القرآن الكريم شبهتهم هذه، ووضح أن التقليد وهم، والوهم لا يغنى من الحق شيئًا، فقال لهم:
أولًا:{ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**}(٦) وهذا يدل على أن أهل التقليد، لا يحكمون لهم رأيًا، ولا يعملون فكرًا؛ فلذلك تاهوا في أودية الوهم، هم ومن سار على نهجهم.

وقال لهم ربنا– تبارك وتعالى– ثانيًا:{ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** }(٧) وهذا تجهيل لهم، حيث يقلدون ولا ينظرون في الدلائل، فحث الله رسوله أن يخبرهم بأن دينه أهدى وأصوب مما كان عليه أبائهم لعلهم يخلعون ربقة التقليد.

---

(١) رسائل الجاحظ، جـ٤ صـ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية:١٧٠.
(٣) سورة المائدة، الآية:١٤٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية:٢٢.
(٥) سورة الزخرف، الآية:٢٣.
(٦) سورة البقرة، الآية:١٧٠.
(٧) سورة الزخرف، الآية:٢٤.

يقول الإمام الشوكاني[١]عند تفسيره لهذه الآية:" وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعه قد تمسكوا بها، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل، ولا حجة واضحه، وهب لهم الشيطان عصى يتوكئون عليها عندما يسمعوا من يدعوهم، وهي أنهم يقولون: إن إمامنا الذي قلدناه، واقتدينا به أعلم منك؛ وذلك لأن أذهانهم قد تصورت من يقتدون به تصورًا عظيمًا بسبب تقدم العصر، وما علموا أن هذا منقوص عليهم، مدفوع به في وجوههم"[٢] فالتقليد تعطيل للفكر، وإغلاق لمنافذ الهداية والمعرفة.

٢-عدم ترتيب المعارف، وتناولها وفق المقاصد الأساسية، الأهم فالمهم:

يعلل الجاحظ، ويتحدث عن الجهال والأحداث والسفهاء الذين لم يقتنعوا بدلائل النبوة وشككوا فى حججها على الرغم من ظهورها:"إنهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبل العلم بجليله- العلوم الإنسانية وعلى رأسها الفلسفة لا العقائد والشرائع الدينية – مالم تبلغه قواهم وتتسع له صدورهم، وتحمله أقدارهم، فذهبوا عن الحق يمينًا وشمالًا؛ لأن من لم يلتزم الجادة تخبط، ومن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سقط"[٣] والنبي- ﷺ – علمنا هذا المنطق السليم حتى لا نقع في الوهم، وذلك في حديث معاذ بن جبل- رضي الله عنه- حين بعثه إلى اليمن وقال له:"**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ**

---

(١) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، ولد بهجرة شوكان- من بلاد خولان، باليمن- ونشأ بصنعاء، ولاه الإمام المهدي العباسي ابن الحسين القضاء بالجهات الخولانية ثم اعتذر عنه فولاه القضاء بصنعاء، توفى سنة خمسين ومائتين وألف من الهجرة(الأعلام،جـ٦صـ٢٩٨)

(٢) فتح القدير، الإمام/ الشوكاني، جـ٤ صـ٦٣٣، الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت.

(٣) الرسائل الكلامية، صـ١٢٩.

**وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**"(١)
فالنبي– ﷺ – رتب لمعاذ–رضي الله عنه– أمور دعوته وفق فقه الأولويات، فبدأ بالتوحيد قبل غيره، وفي العبادات بدأ بالفرائض قبل السنن والمستحبات، وبالمحرمات قبل المكروهات، وهكذا وضع النبي–ﷺ– كل شيئ في موضعه الصصحيح، فلم يؤخر ما حقه التقديم، ولم يقدم ما حقه التأخير.

وحينما بُعِثَ النبي–ﷺ– والمجتمع مليئ بالفواحش والمنكرات، بدأ النبي– ﷺ– دعوته بالنهى عن الشرك أولًا؛لأن الشرك هو المنكر الأكبر، والذنب الأعظم، يقول الله تعالى:{ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**}.(٢)

٣–الشك:

يفرق الجاحظ بين نوعين من الشك: ذم أحدهما وحمد الآخر وأوجبه، أما الشك المذموم: فهو في نظر الجاحظ، داء وعله يجب المعالجه منه، وفي ذلك يقول:" من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف، وللنفس عزوف، فما عودتها من شيئ جرت عليه... وسنتكلف من علاج دائه وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه بما لا يبقى سببًا للشك، ولا عله للضعف، والله– تعالى– المعين على ذلك(٣) ويسمى صاحب هذا النوع الشكاك ويصفه الجاحظ بالجهل، وعدم الإدراك، فيقول:" وقد زعم ناس من الجهال، ونفر من الشكاك، ممن يزعم أن الشك واجب على كل شيئ إلا في العيان؛ أن أهل المنصوره وافوا مصلاهم يوم الخميس على أنه يوم الجمعه في زمن منصوري، وأن اهل البحرين جلسوا على مصلاهم يوم الجمعه على أنه يوم الخميس في زمن أبي جعفر، فبعث إليهم وقوَّمهم، وهذا لا يجوز ولا يمكن في أهل الأمصار، ولا في العدد الكثير من أهل القري".(٤)

إن هذا الشك نوع من الوهم يطرأ على عقل الإنسان، والشكاك هذا عقله غير مستقر، فهو يعتقد الأمر على خلاف ما هو عليه، ولذلك لا يعتد بما يقول الشاك عند العلماء عامه والفقهاء خاصة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الْإِيمَانِ، باب: الدُّعَاءِ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، جـ١صـ٣٧.
(٢) سورة النساء، الآية:٤٨.
(٣) الرسائل الكلامية، صـ١٥٠.
(٤) الرسائل الكلامية، صـ١٣٩.

أما الشك المنهجي الذي امتدحه الجاحظ وعده مرحلة من مراحل العلم، وشرط للمعرفه، وسبيل لليقين، هو الذى سبق به الإمام الغزالى وديكارت وغيرهما، وكل من ينادي بمنهجية الشك، فهو يقول:" اعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشَّكّ في المشكوك فيه تعلُّمًا، فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرُّف التوقُّف ثمَّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممَّا يحتاج إليه".(١)

والشك المنهجي من صفات الخواص وليس العوام؛ وسبب ذلك عند الجاحظ" لأنَّهم لا يتوقَّفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدامُ على التَّصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشَّكّ التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سُوء الظنِّ، وحُسن الظّن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب".(٢)

والشك عند الجاحظ كان نتيجة سيطرة الوهم على الكثير، وعدم المطابقة بين الأخبار والوقائع بعد قراءة التجارب على ما كان يظنه الناس حقائق وهى في الحقيقة ونفس الأمر على خلاف تصورهم، ويضرب لنا الجاحظ مثلًا ويقول:"وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار، أن الناس لم يجدوا في بطن "شبوطة"(٣) قطُّ بيضًا، وأنا أخبرك أنِّي قد وجدته فيها مِرارًا، ولكني وجدتُهُ أصغر جُثّةً، وأبعد من الطِّيب، ولم أجده عامّاً كما أجده في بطون جميع السمك، فكيف أسكُنُ بعد هذا إلى أخبار البحْريِّين، وأحاديث السمَّاكين، وإلى ما في كتابِ رَجُل

(١) الحيوان، جـ٦ صـ٣٣٥.

(٢) الحيوان، جـ٦ صـ٣٣٦.

(٣) نوع من الأسماك، رأسها مخروطي الشكل، وجمسها مغزلي، ولها أربعة شوارب أو زوائد استشعارية تحيط بالفم ، أما لون هذه الأسماك عادة فيكون زيتونياً مخضراً، والجزء السفلي للجسم أصفر اللون، يتروواح الطول الطبيعي للسمكة ما بين ثلاثين إلى خمس وسبعين سنتيمتر، ويصل وزنها إلى خمسة وعشرين كيلوغرام، يعيش سمك الشبوط أو المبروك في المياه العذبة التي تكون بها المياه بطيئة الحركة، والمياه قليلة الملوحة، ويعتبر لحم الشبوط من اللحوم الغذائية المهمة، ولهذا يربى ويزرع في كثير من الدول.

لعلَّه أنْ لو وجد هذا المترجم أن يُقِيمَهُ على المِصْطبة، ويبرأ إلى النَّاس من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته".[1]

ومثال آخر يضربه الجاحظ لعله يرفع عن الناس ما هم فيه من وهم فيقول: "والأفاعي تكره ريح السَّذاب[2] والشّيح[3] وتستريح إلى نبات الحَرمَل[4] وأمَّا أنا فإنِّي ألقيْتُ على رأسها وأنفها من السّذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلاً".[5]

فالتجربة أثبتت للجاحظ وقوع كثير من الناس في الوهم، وهذا ما دفعه للشك فيما قرأه، حتى عن أستاذه" النظّام"[6] والفيلسوف اليوناني" أرسطو" فهو ينفي ما قاله أرسطو عن الأخلاق ويشكك فيه، فالأخلاق ليست مكتسبة بالتربية والتعليم

(١) الحيوان، جـ٦ صـ٣٢٧ ،٣٢٨.

(٢) السَّذَابُ والسَدَاب: نبات يقارب شجر الرمان، ورقه كالصعتر، وزهره أصفر، ورائحته بجملنه مكروهة(الألفاظ الفارسية المعربة، السيد اوي شير،صـ٨٨، الطبعة الثانية سنة١٩٨٨م، دار العرب للبستاني، مصر) أما عن فوائد هذا النبات وخصائصه،فليراجع في ذلك كتاب(عجائب المخلوقات والحيونات وغرائب الموجودات، الإمام/ زكريا محمد القزويني، صـ٢٣٧، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان)

(٣) الشِّيحُ: نبات سهلي أجوف، ورقه كورق السرو، يتخذ من بعضه المكانس وهو من الأمرار له رائحة طيبة وطعم مر، يمنع من لدغ العقارب والرتيلا، والسموم كلها( لسان العرب، جـ٢صـ٥٠٠؛عجائب المخلوقات والحيونات وغرائب الموجودات، صـ٢٤٠)

(٤) الحَرْمَل: حب كالسمسم واحدته حرملة، قال الإمام أَبي حنيفة الحَرْمَل نوعان: نوع ورقه كورق الخلاف ونوره كنور الياسمين يطيب به السمسم وحبه في سنفة كسنفة العشرق، ونوع سنفته طوال مدَوَّرة، والحَرْمَل لا يأكله شيء إلا المِعْزى.(لسان العرب، جـ١١صـ١٥٠)

(٥) الحيوان، جـ٦صـ٥٢٨.

(٦) النظام: أبو إسحاق إبراهيم بن سيار، مولي آل الحارث الضبعي البصري، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف، شيخ الجاحظ ، تكلم في القدر، كفره جماعة وقال بعضهم: كان علي دين البراهمة المنكرين للنبوة والبعث، له تصانيف جمة ، توفي سنة بضع وعشرين ومائتين.(سيرة أعلام النبلاء، جـ١٠صـ٥٤٢)

عنده، بل بعد تحليلة للخصال الخلقية تحليلًا نفسيًا يمتاز بالدقة والعمق يؤكد على:أن الأخلاق طباع في الناس،فهي تولد معهم،ويحملوها بالفطرة.[١]

وفي قضية معرفة الله، يخالف الجاحظ " أرسطو " ويبين أن معرفة الله تتم بواسطة الأنبياء، وينفى معرفة الله بأدلة أخري، كالحركة والسكون، والمعروف أن أرسطو أقدم من قال بدليل الحركة، وتابعة فيه الفلاسفة العرب.[٢]

وفي مسألة إدراك الجمال، يخالف الجاحظ أرسطو في كيفية إدراكه، فهو يري أن النظر والإحساس لا يكفيان لإدراك جمال الأشياء، فلابد من تدخل العقل الذي يصدر الحكم.[٣]

ولقد انتقد الجاحظ" النظّام " على الرغم من أنه تعلم منه، وشك في نتائج قياسه، والسبب في ذلك؛ لأنه كما يقول الجاحظ:" وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوءَ ظنه، وجودةَ قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يُوثَق بمثله، فلو كان بدَلَ تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنه كان يظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظنًا فإذا أتقن ذلك وأيقن، جزم عليه".[٤]

والخلاصة: أن الجاحظ يعتقد بوجود أسباب هي المسئولة عن أوهام العقل، وبناءً عليه كان له منهجًا علميًا للوصول إلى الحقيقية، هذا المنهج مبنيًا على المشاهدة والتجربة، وتحكيم العقل، وهذه هي الموازين التي ينبغي أن نزن بها، إذا أردنا أن نصل إلى الحقيقة.

كان نتيجة تطبيق هذا المنهج، الشك في الأخبار والمعتقدات التي تسيئ للعلم؛ لأنها لاتتطابق مع الواقع، وكذلك إنكار الأساطير والخرافات التي تسيطر على العقل البشري، ومن طالع كتاب"الحيوان" أدرك أن ذلك كان من ضمن أغراض تأليفه.

---

(١) الرسائل الأدبية، صـ٦.
(٢) الرسائل الكلامية ، صـ٢٢٥.
(٣) الرسائل الكلامية ، صـ١١.
(٤) الحيوان، جـ٢ صـ٣٧١.

هذا المنحنى الذى اتخذه الجاحظ يجعله أول من اكتشف المنهج التجريبي، وأول من طبق الشك المنهجي، والأسبق إلى أوهام العقل، وفي ذلك دليل على عبقرية الجاحظ العلمية.

# الفصل الثاني
# العقل وغلطاته في فكر الإمام الغزالي

**ويتكون هذا الفصل من مبحثين:**

**المبحث الأول:** مكانة العقل عند الإمام الغزالي.

**المبحث الثاني:** غلطات العقل وأسبابها عند الإمام الغزالي.

# الفصل الثاني
# العقل وغلطاته في فكر الإمام الغزالي[1]

## المبحث الأول: مكانة العقل عند الإمام الغزالي.

لقد أفسح الغزالي المجال للعقل، وأثنى على دوره الرائد والمهم في شتي مجالات الفكر الإنساني والديني على السواء، فهو الذي رفض التقليد بكل صوره، وأسند الأمر كله للعقل، فقال في ذلك:" فاعلم يا أخي متى كنت ذاهبًا إلى تعرف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك، فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس، أو كالسراج يعطى الضوء، ثم انظر ببصرك فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس، فمن عول على التقليد هلاك هلاكًا مطلقًا"[2]ويقول:" إن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر".[3]

ومع كونه التزم مذهب المتصوفه إلا أنه لم يتخل أبدًا عن تأكيد دور العقل، وتحكيمه في كل الأمور، ولقد رأيناه يوجه النقد لبعض المتصوفه الذين ينكرون

(١) الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، نسبته إلى صناعة الغزّل- عند من يقوله بتشديد الزاي- أو إلى غزالة – من قرى طوس- لمن قال بالتخفيف، ولد سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة، مولده ووفاته في الطابران، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، تفقه ببلده أولًا، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، رحل إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، ثم عاد إلى وطنه بطوس مقبلًا على التصنيف والعبادة ونشر العلم ودرس بنظامية نيسابور مدة ثم تركها وبنى دار للصوفية ومدرسة للمشتغلين، توفي يوم الإثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة من الهجرة.(سيرة أعلام النبلاء، جـ١٩صـ٣٢٢؛ طبقات الشافعية، تقي الدين ابن قاضي شهبة، جـ١صـ٢٩٣، تحقيق الدكتور/الحافظ عبد العليم خان، الطبعة الأولى سنة١٤٠٧هـ، دار عالم الكتب– بيروت؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ٤صـ٢١٨)

(٢) معراج السالكين،الإمام/أبي حامد الغزالي،صـ٩٥،الطبعة الأولى سنة١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م،مطبعة السعادة، مصر.

(٣) الاقتصاد في الإعتقاد، الإمام/ أبي حامد الغزالي، صـ٩، تحقيق/عبد الله محمد الخليلي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

مكانة وقيمة العقل، وماله من أهمية في إدراك المعرفة، فبين لهم الإمام الغزالي أن إنكار العقل لا يؤدى إلا إلى إنكار النقل ذاته؛ لأن الحكم على النقل بالصدق ما هو إلا حكم عقلي، وذمه ذم للنقل، وفي ذلك يقول:" فما بال أقوام من المتصوفه يذمون العقل بالمعقول، فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم.

فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله – تعالى– عليه وإن ذم فما الذي بعده يحمد فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضًا مذمومًا، ولا يلتفت إلى من يقول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور، وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ ".[١]

كما استنكرها على من رفضوا العقل والمعقول مبينًا لهم أن الدين لا يعرف إلا عن طريق الشرع والعقل معًا، فلا يمكن الاستغناء عن أحدهما؛ لأن ذلك يوقعهم في الخطأ البين وفي ذلك يقول:" هيهات قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والإيذاء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء، فالمعرض عن العقل متكفيًا بنور القرآن، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور".[٢]

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام/أبو حامد الغزالي، جـ١ صـ٨٩، دار المعرفة، بيروت– لبنان.
(٢) الإقتصاد في الإعتقاد، صـ١٠.

فلولا العقل ما كان الدين؛ لأن العقل كما يقول الراغب[١]:" قائد، والدين مسدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، فوظيفة العقل والدين واحدة، واجتماعهما نور على نور"[٢] ونور العقل كرامة لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه، والغالب على الخلق القصور والإهمال، فهم لقصورهم لا يدركون براهين العقول كما لا تدرك نور الشمس أبصار الخفافيش، فهؤلاء تضر بهم العلوم كما تضر الرياح الورد بالجعل[٣].[٤]

ويقول الغزالي في موضع آخر عن العقل:" أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء"[٥] فمكانة العقل

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب أديب من الحكماء العلماء من أهل أصفهان سكن بغداد، واشتهر حتى كان يُقرن بالإمام الغزالي، له مؤلفات عديدة، توفى سنة ثنتين وخمسين من الهجرة.(الأعلام،خير الدين بن محمود بن محمد الزر كلى،جـ٢ صـ٢٧٩، الطبعة السابعة مايو سنة ١٩٨٦م، طبعة دارا لعلم للملايين؛ وراجع في ترجمته سيرة أعلام النبلاء، جـ١٨، صـ١٢١،١٢٠.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الإمام/الراغب الأصفهاني، صـ٩٩، طبعة ١٩٧٣م، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) الجعل بضم الجيم وفتح العين المهملة، كصرد ورطب جمعه جعلان، دويبة أرضية، يقال لها: أبو جعران وتسمى الزعقوق وهي أكبر من الخنفساء شديد السواد،يوجد كثيرًا في مراح البقر والجواميس ومواضع الروث ومن شأنه جمع النجاسة وادخارها(حياة الحيوان الكبرى،أبو البقاء محمد بن موسى الدميري،جـ١صـ٢٨١، الطبعة الثانية سنة١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية،بيروت–لبنان)أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺأنه قال{...لينتهين أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن } (المسند، جـ٨ صـ٤٠٤) وفي رواية الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:قال رسول الله ﷺ:{ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَا يُدَحْرِجُ الْجُعَلُ بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمِ الَّذِينَ مُوِّتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ } وفي رواية{ يُدَهْدِهُ الْجُعَلُ بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْهُمْ}(المعجم الكبير، الإمام/ الطبراني،جـ١١صـ٣١٧، تحقيق/حمدي السلفي،الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية – القاهرة) ومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب، فإذا أعيد إلى الروث عاش، يقول المتنبي: بذي الغَبَاوَةِ مِنْ إنْشادِها ضَرَرٌ ...كمَا تُضِرّ رِياحُ الوَرْدِ بالجُعَلِ

(٤) الإقتصاد في الإعتقاد، صـ١٥.

(٥) إحياء علوم الدين، جـ٣ صـ٤١٠.

في فكر الغزال مدركة بالضرورة، فما لا تنال سعادة الدنيا والآخرة إلا به فكيف لا يكون أشرف الأشياء؟ ثم إن الحس يؤكد على هذه المكانة حتى إن أكبر الحيوانات شخصًا وأقواها بدنًا، إذا رأى الإنسان احتشمه بعض الإحتشام، واستشعر الخوف منه؛ لإحساسه بأنه مستولى عليه بجبلته.

وأقرب الناس إلى البهائم أجلاف العرب والترك، ورعاة البهائم منهم، ولو وقع بينهم أوفر منهم عقلًا، وأكثر منهم دراية بصناعته، لوقروه طبعًا؛ ولذلك ترى الناس بالطبع يبالغون في توقير شيوخهم؛ لأن التجربة ميزتهم عنهم بمزيد علم.(١)

فالعقل لا يحتاج إلى تكلف في إظهار شرفه، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤيا من العين؛ لهذا ليس للعقل حد في فكر الإمام الغزالي" فالموجودات كلها مجال للعقل، إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها ومالم نعدها، وهو الأكثر".(٢)

ومن دلائل مكانة العقل عند الغزالي ما يأتى:

١- أنه دعا إلى الحكم بالإجتهاد والرأى، وتتجلى دعوته هذه في كتابه" المنقذ من الضلال " عندما انبرى للرد على" الباطنية " فقال في ذلك:" بقى قولهم: كيف تحكمون فيما لا تسمعون ؟ أبالنص ولم تسمعون؟ أم بلإجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف؟ فنقول:" نفعل ما فعله:"معاذ" إذ بعثه رسول الله- ﷺ – إلى اليمن، أن نحكم بالنص عند وجود النص، وبالإجتهاد عند عدمه، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد... فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى بالإجتهاد؛ إذ لو سار إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة لفات وقت الصلاة، فإذا جازت الصلاة إلى غير القبلة بناءً على الظن، ويقول ﷺ:{إِذَا حَكَمَ

---

(١) ميزان العمل، الإمام/ أبي حامد الغزالى، صـ٣٣٢، تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م، دار المعارف، مصر.

(٢) مشكاة الأنوار في توحيد الجبار، الإمام/ أبي حامد الغزالى، صـ٤٨، تحقيق الدكتور/سميح دغيم، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت – لبنان.

الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ}(١) فكذلك في جميع المجتهدات ... فرد الخلق إلى الإجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة مع أنهم قد يخطئون".(٢)

٢- وإن دل إهتمام الغزالي بالمنطق على شيءٍ فإنما يدل على اهتمامه بالعقل اهتمامًا خاصًا ولم لا والمنطق هو: جملة القوانين التى من شأنها أن تقوّم العقل، وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب، ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات؛ والقوانين التى تحفظه، وتحوطه من الخطأ، والذلل، والغلط في المعقولات؛ والقوانين التى يمتحن بها في المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد غلط فيه غالط...ففي ذلك يضطر الإنسان الذي يلتمس الوقوف على الحق اليقين في مطلوباته كلها إلى قوانين المنطق، هذه القوانين هى: آلات يمتحن بها في المعقولات ما لا يؤمن أن يكون العقل قد غلط فيه، أو قصر في إدراك حقيقته، تشبه الموازيين والمكاييل التى يمتحن بها في كثير من الأجسام ما لا يؤمن أن يكون الحس قد غلط، أو قصر في إدراك تقديره، كالمساطر التي يمتحن بها في الخطوط ما لا يؤمن أن يكون الحس قد تحير أو غلط في إدراك إستقامته.(٣)

لهذا كله أكد الإمام الغزالي في مقدمة كتابة " المستصفى" على أن المنطق مقدمة ضرورية لكل العلوم،وكل عالم مرهون علمه حتى يلم بهذا العلم، وعن ذلك يقول:" وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها، فلا ثقة له بعلومه أصلًا، وحاجة جميع العلوم النظرية إلى هذه المقدمة كحاجة أصول الفقه.(٤)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب:الِاعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، باب:أَجْرِ الحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ،جـ٩صـ ١٠٨؛ صحيح مسلم، كتاب:الْبُيُوعِ، باب: بَيَانِ أَجْرِ الْحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ ، أَوْ أَخْطَأَ، جـ٥ صـ ١٣١.

(٢) المنقذ من الضلال،الإمام/أبي حامد الغزالى،صـ٣٧،تحقيق/ محمد محمد جابر ،المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان.

(٣) إحصاء العلوم، أبى نصر الفارابي، صـ٢٩،٢٧، تحقيق/على بو ملحم، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان.

(٤) المستصفى، صـ١٠،.

والمنطق الذي أرتضاه الغزالي مستمد من المصادر الإسلامية، فميزانه في ذلك القرآن الكريم، وبواسطته يصل المؤمن إلى نتيجة يقينية صادقه، فحينما سئل بما تزن معرفتك؟ قال:" أزنها بالقسطاس المستقيم ليظهر لي حقها وباطلها، ومستقيمها، ومائلها اتباعًا لله تعالى، وتعليمًا من القرآن المنزل على لسان نبيه – ﷺ– حيث قال سبحانه:{ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**} [(١)] والقسطاس المستقيم في فكر الإمام الغزالي،هي:الموازين الخمسة التي نزّلها الله–سبحانه وتعالى– في كتابه، وعلم أنبياءه الوزن بها، فمن تعلم من رسول الله، ووزن بميزان الله فقد اهتدى".[(٢)]

هذا هو المنهج الذي اتخذه الإمام الغزالي لصياغة منطق يتوافق مع مبادئ الإسلام، ويتمشى مع العقلية الإسلامية، ويهدف إلى: تقوية الإستدلال الإسلامي وضبطه، ومحاولة الاستفادة من الفكر الوافد، ثم وسمه باليقين الإسلامي، وبهذا يعد منطق الغزالي محاولة فريدة متقدمة في الأبحاث الإسلامية، ومنهجًا مختلفًا، عن باقي التجارب المنطقية الباقية.

ومع تقديره لمكانة العقل، إلا أنه ليس مستقلًا عنده بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات[(٣)] وإنما العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم أساسه "الحدس الديني"[(٤)] أو الكشف الباطني، وهو طور آخر وراء طور العقل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٥، وسورة الشعراء، الآية:١٨٢.

(٢) القسطاس المستقيم، الإمام/ أبي حامد الغزالي صـ١٤، تحقيق/ محمود بيجو، طبعة سنة ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، المطبعة العلمية، دمشق.

(٣) المنقذ من الضلال، صـ٣٤.

(٤) الحدس بالفتح وسكون الدال المهملة، في اللغة هو: الظن، والتخمين، والتوهم في معاني الكلام والأمور، والنظر الخفي، والضرب والذهاب في الأرض على غير هداية. وفي اصطلاح الفلاسفة: عند ابن سينا الحدس هو: سرعة الإنتقال من معلوم الى مجهول(النجاة، الشيخ الرئيس/ ابن سينا،صـ١٣٧) وعند الجرجاني الحدس هو سرعة انتقال الذهن من المبادي إلى المطالب وقال التهانوي:" الحدس هو تمثل المبادي المرتبة في النفس، دفعة من غير قصد واختيار، سواء بعد طلب أو لا، فيحصل المطلوب وهو مأخوذ من الحدس بمعنى السرعة والسير"( موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، جـ١صـ٦٢٦، تحقيق الدكتور/علي دحروج، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، =

يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، فالمعرفة الكلية اليقينية خارجة عن نطاق العقل، لذا يكشف لنا الإمام الغزالي، عن مغالطات، وأوهام يقع فيها العقل الإنساني، وقد أشار إلى ذلك في قوله:" فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال، لم يتصور أن يغلط، بل نرى الأشياء على ما هي عليه، وفي تجريده منها عسر عظيم، وإنما يكتمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت، وعند ذلك ينكشف الغطاء، وتنجلي الأسرار، ويصادف كل أحد ما قدم: من خير أو شر محضرًا، يقول الله تعالى:{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}[1]وإنما الغطاء: غطاء الخيال والوهم وغيرهما، وعندها يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة، وخيالاته الباطلة:**{...رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}**.[2]

---

=مكتبة لبنان، بيروت– لبنان) ويقول ديكارت:" هو التصور الذي ينشئه الفكر الخالص المنتبه، متولّدًا عن نور العقل وحده"( قواعد لتوجيه الفكر، رونيه ديكات، صـ٣٥، القاعدة الثالثة، ترجمة/سفيان سعدالله، دار سراس، تونس) والحدس عند بعض الاشراقيين هو ارتقاء النفس الإنسانية إلى المبادي العالية حتى تصبح مرآة مجلوة تحاذي شطر الحق، فتمتلئ من النور الإلهي الذي يغشاها، من دون أن تنحل فيه انحلالًا تامًا، ويسمى هذا الامتلاء من النور الإلهي كشفًا روحيًا، أو إلهامًا وله أربعة أنواع: الحدس التجريبي، والحدس العقلي، والحدس الكشفي، والحدس الفلسفي أو الصوفي، أعني حدس الاشراقيين الذين يزعمون أنهم يرتقون من مشاهدة الصور والأمثال إلى ادراك الحقائق المطلقة( المعجم الفلسفي، الدكتور/جميل صليبا، جـ١صـ٤٥٤،٤٥٢، طبعة سنة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م، الشركة العالمية للكتاب – بيروت)

(١) سورة ق، الآية:٢٢.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.

## المبحث الثاني: غلطات العقل وأسبابها عند الإمام الغزالي.

### المطلب الأول: ما هية الغلط والفرق بينه وبين الوهم.

إن حياد العقل عن الصواب يسمى في فكر الإمام الغزالي بـ"غلطات العقل" أما الفيلسوف الإنجليزى "فرنسيس بيكون" فقد سماه بـ"أوهام العقل" والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل هناك فرق بين الإطلاقين؟ أم أنهما من باب المترادف الذي يصح إطلاق كل منهما على الآخر؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول: الغلط مصدر غلط في الأمر يغلط غلطًا أي: أخطأ وجه الصواب.

وفي الإصطلاح: أن تعيا بالشيء فلا تعرف وجهه الصواب فيه، فكل شيءٍ يعيا الإنسان عن جهة صوابه من غير تعمد فهو غلط .[١]

وفي الاصطلاح الفلسفي هو: الخطأ والضلال، تقول: غلط في الأمر، لم يعرف وجه الصواب فيه، ومنه الغلط في الحساب، أو في المنطق.[٢]

والفرق بين الغلط والخطأ عند اللغويين: أن الغلط هو وضع الشيء في غير موضعه، ويجوز أن يكون صوابًا في نفسه، والخطأ لا يكون ثوابًا على وجه، ومن العلماء من قال: أن الغلط أن يسهى عن ترتيب الشيء واحكامه، والخطأ أن يسهى عن فعله، أو أن يوقعه من غير قصد له، ولكن لغيره.[٣]

ولا فرق بين الغلط والخطأ عند الفلاسفة، فالخطأ ضد الصواب وهو مالم يتعمد من الفعل، وللخطأ في اصطلاح الفلاسفة عدة معاني ترجع في أصل معناها إلى معنى الغلط وهي:

أ- الخطأ نقيض الصواب، وهو أن يحكم على شيءٍ بأنه باطل وهو حق، أو تحكم عليه بأنه حق وهو باطل، فالخطأ إذًا في الحكم لا في الاحساس ولا في التصور وهو الوهم أو الغلط.

ب- الخطأ فعل يصدر بلا قصد إليه عند مباشرة أمر مقصود سواه.

---

(١) لسان العرب، جـ٧ صـ٣٦٣.

(٢) المعجم الفلسفي، الدكتور/ جميل صليبة، جـ٢ صـ١٢٩، طبعة سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٢م، الشركة العالمية للكتاب، بيروت- لبنان.

(٣) الفروق اللغوية، أبي هلال العسكري، صـ٥٥، تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، مصر.

ت- الخطأ سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب.[١]

أما الوهم فمن خطرات القلب، وللقلب وهَمْمٌ، وتَوَهَّمَ الشيء: تخيله وتمثله، كان في الوجود أو لم يكن، ويقال: توهمت في كذا وكذا، وأوهمت الشيء: إذا أغفلته، ويقال: وهمت في كذا وكذا أي: غلطت، ووهم إذا غلط، ووهمت فى الحساب وغيره وهمًا: إذا غلطت فيه، وسهوت، والجمع أوهام ووهوم ووهم[٢] وكثيرًا ما يستعمل الوهم في الظن الفاسد والخداع الحسي، وكل ماهو غير مطابق للواقع.

والوهم في الاصطلاح هو: إدراك الواقع على غير ما هو، فإن كان الحكم جازمًا لا يقبل التغيير فهو العلم، وإن قبله فهو الاعتقاد، وإن لم يكن الحكم جازمًا: فإما أن يتساوى طرفاه فهو الشك، وإما أن يرجح أحدهما، فالراجح هو الظن، والمرجوح هو الوهم.[٣]

والوهم في الاصطلاح الفلسفي: يطلق على كل خطأ في الإدراك، أو الحكم، أو الاستدلال، شريطة أن يظن أنه خطأ طبيعي، وإن وقوع المرء فيه ناشئ عن انخداعه بالظواهر.

وهو أيضًا: تمثيل حسي كاذب ناشئ عن كيفية تأمل الادراك، لا عن معطيات الاحساس، كمن ينظر إلى الخشبة الطافية فوق الماء فيحسبها غريقًا، أو إلى الحشرة الصغيرة الطائرة بالقرب من عينيه فيحسبها طيرًا كبيرًا.[٤]

والوهم هو أيضًا: إدراك المعنى الجزئي المتعلق بالمعنى المحسوس، والوهميات: قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة، كالحكم بأن ما وراء العالم فضاء لا يتناهى.[٥]

ويمكن أن نعرف الوهم بأن نقول: هو عبارة عن حالة إدراكية غير صحيحة تسيطر على العقل، وتؤثر في التفكير سلبًا، وينعكس ذلك على السلوك.

---

(١) المعجم الفلسفي، جـ١صـ٥٢٩- ٥٣٠.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، جـ١٢صـ٦٤٣.

(٣) الكليات، أبي البقاء الكفومي، صـ١٥١٧، تحقيق/ عدنان درويش؛ محمد المصري، طبعة سنة١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

(٤) المعجم الفلسفي، جـ٢صـ٥٨٣.

(٥) التعريفات، صـ٢٥٥..

والمتأمل في هذه التعريفات لا يجد فروق جوهرية، وإنما الفرق في اللفظ لا في المعنى، فكلاهما: خطأ في الإدراك الحسي، أو في الحكم، أو في المحاكمة المنطقية من غير قصد بمعنى: أن الذي يرتكبه يكون قد خدعته المظاهر.

ولعل هذا ما دفع الإمام الغزالي بأن يسمي هذه الحالة بـ "غلطات الوهم" فيقول: "ولكن ههنا ثلاث غلطات للوهم يستفاد من الوقوف عليها الخلاص من إشكالات تغتر بها طوائف كثيرة "[١] فقد قرن بينهما وكأنهما شيء واحد.

**المطلب الثاني: غلطات العقل وأسبابها.**

لقد شك الغزالي في وسائل المعرفة، وخاصة الحس والعقل، وانتهى إلى أنهما عاجزين عن إدراك الحقيقة، والوصول إلى اليقين.

فالحواس كثيرًا ما تقع في الوهم، والغلط، وإذا كان العقل هو العامل في إفساد الثقة بالحواس، فليس ببعيد أن تدور الدائرة على العقل، ثم تأمل الإمام الغزالي وهو يصور لنا هذا المشهد ؛ لنرى ما سوف يكون من أمر العقل.

قال الإمام الغزالي:" قالت المحسوسات: بم تأمل أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقًا بي فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه".[٢]

فجانب الصواب في المعرفة العقلية غير مأمون، وفي أحيان كثيرة ينتابها الغلط والوهم، أما تراك تعتقد في النوم أمورًا، وتتخيل أحوالًا، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا ولا تشك في تلك الحالة فيها؟ ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك أصل وطائل! فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقد في يقظتك بحس أو عقل كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها، فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة هي الموت، وما الحياة الدنيا إلا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات المرء ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك:{...فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}.[٣][٤]

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٢.

(٢) ميزان العمل، صـ١٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٤) ميزان العمل، صـ١٦.

فالعقل على حد قول الإمام الغزالي، ليس مستقلًا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات، إلا إذا استعان بالقلب، فهو الذي يستطيع أن يدرك الحقائق الإلهية عن طريق الكشف، والمشاهدة، بعد تصفية النفس، وتهذيبها بالرياضة، وعندئذ" ينكشف المعلوم انكشافًا لا يبق معه ريبة، ولا يقارنه إمكان الغلط، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنًا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبًا، والعصا ثعبًا، لم يورث ذلك شكًا، وإنكارًا".[١]

نستنتج مما سبق: أن الإمام الغزالي لا يثق بالعقل، وقد ضرب أمثلة جديرة بالإعتبار؛ لبيان إمكان خطأ العقل في أحكامه.

والغزالي وهو بصدد بيان وشرح أفعال الله – تعالى– تعرض لقضية "الحسن والقبيح" وما دار حولها من اشكاليات، كانت كمقدمة دفعت الغزالي إلى رد توهم كثير من الفرق والطوائف المختلفة، فيما اعتقدوه من آراء متفاوته، مع بيان وتفصيل ما ترتب على ذلك من مغالطات.

ومن هنا فإن المنطق يحتم علينا توضيح هذه المسألة بشيء من التفصيل، خاصة وأنها كانت الدافع الذي حض الغزالي على الكشف عن هذه الأوهام.

أولًا: مصدر الحكم بالتحسين والتقبيح، وما استدركه الغزالي من أوهام.

تعتقد المعتزلة، ومن على شاكلتهم، أن العقل هو مصدر الحكم، فالحسن والقبح ثابتان قبل الشرع، فالحسن ما حسنه العقل، والقبيح ما قبحه العقل، والمأمور به عندهم حسن بذاته، والمنهي عنه قبيح بذاته، فاللأفعال حسنًا وقبحًا ذاتيين، يقول الإمام الزركشي[٢]:" وصارت المعتزلة إلى أن قبح القبيح يرجع إلى ذاته، والأكثرون منهم صاروا إلى مثل ذلك في الحسن"[٣] وزاد الفلاسفة على المعتزلة حجة، وتقريرًا، فقالوا: قد اشتمل الوجود على خير مطلق، وشر مطلق،

---

(١) ميزان العمل، صـ٢٤.

(٢) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، بدر الدين، عالم بفقه الشافعية والأصول، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، له تصانيف كثيرة في عدة فنون، توفي سنة أربع وتسعون وسبعمائة من الهجرة(الأعلام، جـ٦صـ٦٠)

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، الإمام/ بدر الدين الزركشي، جـ١صـ١٧٩، الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، دار الكتبي، مصر.

وخير وشر ممتزجين، فالخير المطلق: مطلوب العقل لذاته، والشر المطلق: مرفوض العقل لذاته، والممتزج: فمن وجه، ومن وجه، أي: مطلوب من وجه ومرفوض من وجه وهو بحسب الغالب من جهته.[١]

معنى هذا أن العقل هو القائد القادر على ضبط السلوك، ويسأل عن ذلك، وإن لم يرد بذلك تكليف موحى به"والأفعال على صفة نفسية من الحسن والقبيح، وإذا ورد الشرع بها كان مخبرًا عنها لا مثبتا لها".[٢]

وقد أخطأت هذه الفرق،وعلى رأسهم المعتزلة والفلاسفة،حيث ردوا القبح والحسن إلى الصفات الذاتية للأفعال، وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل، إذا الأفعال تختلف بالأشخاص والأزمان، وسائر الإضافات، وليست هي على صفات نفسية لازمة لها لا تفارقها البتة.[٣]

فما اعتقدته المعتزلة، ضرب من الوهم، والغلط، فالعقل لا يوجب تحسينًا ولا تقبيحًا بنفسه، فقد يتجه حكم الحسن والقبيح بالشرع وحده، أو بالشرع والعقل معًا.

أما الأول: فقد ذهب السواد الأعظم من العلماء، إلى أن العقل لا يدل على حسن الشيء وقبحه، ومعنى الحسن: ما ورد الشرع بالثناء على فاعله، ومعنى القبح: ما ورد الشرع بذم فاعله، فالحسن والقبيح على التحقيق، هو عين التحسين والتقبيح الشرعيين، يقول الإمام السرخسي[٤]:" اعلم أن مطلق مقتضى الأمر، كون المأمور به حسنًا شرعًا وهذا الوصف غير ثابت للمأمور به بنفسه فإنه أحد تصاريف الكلام فيتحقق في القبيح والحسن جميعًا لغة كسائر التصريفات ولا نقول إنه ثابت عقلًا؛ لأن العقل بنفسه غير موجب عندنا".[٥]

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،ابن قيم الجوزية،جـ١صـ٥٥، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام، الإمام/ الشهرستاني، صـ٢٠٨، تحقيق/ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام، صـ٢١١.

(٤) محمد بن أحمد بن سهل،أبو بكر،شمس الائمة،قاض،من كبار الأحناف، مجتهد،من أهل سرخس في خراسان أشهر كتبه"المبسوط" في أصول الفقه توفي سنة ثلاث وثمانون وأربعمائة من الهجرة(الأعلام، جـ٥صـ٣١٥)

(٥) أصول السرخسي، جـ١صـ٦٠، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

أما الثاني: فقد ذهب إليه الإمام الغزالي، الذي أكد على أن العقل لم ينفرد وحده بالحكم على العمل بالحسن والقبح، ومثله في ذلك الشرع، بل إن الأمر يرجع إليهما معًا، فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع، وشر إذا خالفهما، وهكذا قاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع.

فسبق الوهم، هو الذي أوقع المعتزلة في هذا المشكل، إذ أن العقل آلة تدرك بها الأشياء، فيدرك به حسن وقبح بعد أن ثبت ذلك بالسمع، يقول الإمام الغزالي:"الأخلاق الحسنة والسيئة قد فصّلها الشرع"(١) وعليه فإن للشرع قوة التأسيس، كما للعقل العملي، وذلك بعد أن تأسس الشرع والعقل العملي من قبل على العقل النظري.

ثانيًا: ما هية الحُسن والقبح، وما ترتب على ذلك من مغالطات وأوهام أشار إليها الغزالي.

إننا إذا نظرنا إلى تعريفات الإمام الغزالي للحسن والقبيح، نراه قد حدد ثلاثة تعريفات لكل من الحسن والقبيح، بناءً على تقسيمه للعقل باعتبار موافقته لغرض فاعله أو مخالفته.

ومن هذا المنطلق، وتلك الزاوية، يقسم الغزالي العقل بالنسبة إلى فاعله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يوافق الغرض ويلائمه. الثاني: أن ينافي الغرض، ولا يكون ملائمًا له.

الثالث: البين بين؛ لكونه لا يوافق ولا ينافي غرض فاعله.

فالأول: الموافق لغرض فاعله، يسمى حسنًا في حقه، ولا معنى لحسنه إلا لموافقته لغرضه.

الثاني: المنافي للغرض ويسمى قبيحًا، ولا معنى لقبحه إلا لمنافاته لغرضه.

الثالث: الذي لا ينافي ولا يوافق، ويسمى عبثًا؛ لأنه لا فائدة فيه أصلًا، وفاعل العبث يسمى عابسًا، كما يسمى سفيهًا، واسم السفه أصدق على فاعل القبيح منه على العبث.(٢)

(١) ميزان العمل، صـ٢٦٢.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٠.

وهناك حالة رابعة وهي:كون الفعل الواحد موافقًا لغرض شخص من جهة،ومخالفًا لغرضه من جهة أخرى؛ لتغير الظروف والأوضاع، وعليه يكون الفعل حسنًا من وجه، قبيحًا من جه آخر.

مثال ذلك: الرجل الذي لا يؤمن بدين سماوي يستحسن ارتكاب جريمة الزنا بزوجة جاره؛ لأن الفعل يوافق غرضه الخبيث، بينما يستقبح أن يزني جاره أو غيره بزوجته.

أما الفعل بالنظر لغير فاعله، فينظر إلى هذا الغير تبعًا لغرضه، فإن وافقه كان حسنًا عنده، وإن خالفه كان قبيحًاعنده.

وقد يوصف الفعل الواحد بالحسن عند شخص، وبالقبح عند آخر؛ لموافقته غرض الأول، ومنافاته غرض الثاني، والسبب في ذلك؛ لكون الموافقه والمخالفة أمرين إضافيين يختلفان بإختلاف الأشخاص والأغراض.

يقول الإمام الغزالي:" فبهذا يتبين على القطع، أن الحسن والقبيح عبارتان عن الخلق كلهم، عن أمرين إضافيين، يختلفان بالإضافات عن صفات الذوات التي لا تختلف بالإضافة، فلا جرم جاز أن يكون الشيء حسنًا في حق زيد، قبيحًا في حق عمرو، ولا يجوز أن يكون الشيء أسود في حق زيد، أبيض في حق عمرو؛ لما لم تكن الألوان من الأوصاف الإضافية ".[١]

وبعدما ذكر الإمام الغزالي مقدمة، قسم فيها الفعل باعتبار موافقة غرض فاعله أو مخالفته، حدد ثلاثة تعريفات لكل من الحسن والقبيح وهي:

الأول: أن كل ما يوافق الغرض عاجلًا كان أو آجلًا- في الدنيا والآخرة - فهو حسن، وإن خالف الغرض عاجلًا كان أو آجلًا فهو قبيح.

الثاني: أن الحسن ما وافق الغرض في الآجل، وهو الذي حسنه الشرع، أي حث عليه، ووعد بالثواب عليه، أما القبيح فهو ما يخالف الغرض في الآجل، وقد نهى عن فعله الشرع، وتوعد عليه بالعقاب، والتعريف الأول أعم من الثاني؛ لشموله الغرض في الدنيا والآخرة، سواء بالموافقه، أو بالمخالفة.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩١.

الثالث: لما كانت أفعال الله – تعالى– خالية من الأغراض، كان الحسن بالنسبة لأفعاله معناه: الذي لا تبعة علية فية، ولا لا ئمة، وأنه فاعل في ملكه كيف يشاء.(١)

وبعدما وضع الإمام الغزالي معنى الحسن والقبح، أزاح الستار عن بعض الغلطات التي ينشأها الخيال والوهم، وتكون سسببًا في الحياد عن الصواب، والوقوع في الخطأ، والوقوف عليها يزيل كثير من الاشكالات، التي تكون سببًا في إضلال كثير من الطوائف، يقول الإمام الغزالي:" ولكن ههنا ثلاث غلطات للوهم، يستفاد من الوقوف عليها الخلاص من إشكالات تغتر بها طوائف كثيرة".(٢)

**الغلطة الأولى:** التعميم في الحكم على الأشياء، أو اضافة القبح إلى ذات الشيء، وهي ظاهرة منتشرة بين الناس، ومرتكزة عند كثير من الطبقات المختلفة للمجتمع.

والتعميم هو: العبارة التي تقرر انطباق حكم ما على جميع أفراد المجموع(٣) أو هو: وضع المتفاوتان في مرتبة واحدة من غير برهان، والتعريف الدقيق الجامع لما قاله الإمام الغزالي في هذا الموضوع هو أن التعميم عبارة عن: الحكم على الشيء بذاتية، دون إدراك الحقيقة، ومراعات رأي الآخرين.

وهذا النوع من الغلط يأخذ صورًا شتى منها: التعميم في الحكم على الأشياء، أو الحكم على الأشخاص، أو الحكم على الأفكار، أو غير ذلك من صور التعميم.

فنجد من الناس، من يغلب عليه جانب المبالغة في اطلاق الأحكام، فنراه يطلق اسم القبيح على كل ما يخالف غرضه– وإن كان الشيء ليس بقبيح في ذاته– وإن كان يوافق غرض غيره، ولكنه لم يلتفت إلى الغير، فالمعيار هو موافقة المصلحة أو مخالفتها، فما وافق المصلحة فهو حسن، وما خالفها فهو قبيح، فأنا أنظر إلى مصابي الأليم وهي الخسارة التي لحقت بي، وإن كان فيها

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩١.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٢.
(٣) الطريق إلى التفكير المنطقي، وليم شانر، صـ٤٩، ترجمة الدكتور/ عطية محمود هنا، طبعة سنة١٩٦١م، مكتبة النهضة المصرية.

نفع للغير لا اعتبر النفع الذي حصل للغير، وإنما أشعر فقط بخسارتي، وبالمقابل لو أني ربحت شيئًا أدى إلى خسارت الآخرين، غالبًا ما يسر الإنسان وينسى آلام الآخرين، وهذه هي الطبيعة البشرية، فأدنى ألم عليك تشعر به، وآلام الناس الكبيرة لا تشعر بها.

فالمغالطة هنا جعل القبح الذي يرجع إلى المخالفة للغرض الشخصي، جعله قبحًا ذاتيًا في العقل، وكأن غرضه كل العالم في حقه، فيتوهم أن المخالفة في نفسه فيضيف القبح إلى ذات الشيء.

وهذا الشخص مصيب في حكمه على الشيء بأنه قبيح في حق نفسه؛ لأن الشيء لم يوافق غرضه، ولكنه مخطئ بحكمه بالقبح على الإطلاق للشيء، وفي إضافة القبح إلى ذات الشيء، وهذه المغالطة لم ينتبه لها كثير من الناس.

وسبب الوقوع في هذا الخطأ،يرجع إلى غفلته عن الالتفات إلى أغراض الآخرين،بل الالتفات إلى بعض أحوال نفسه، فالإنسان قد يستقبح الشيء اليوم؛ لأنه على خلاف مصلحته، ويستحسنه غدًا؛ لكونه على وفق مصلته، لذلك التحسين والتقبيح الشخصيين، يتغيران حتى باعتبار الزمن.

فالتعميم في الحكم، ليس من مقاصد العقلاء، الذين يبنون أحكامهم على دراسة متأنية، بل هو صورة من صور التفكير الخاطئة، وسببها التعميم في الحكم على الأشياء، وإضافة القبح إلى ذات الشيء، وهو ليس كذلك في الحقيقة، وإنما حكم عليه بذلك؛ لمخالفته مصلحته وغرضه، وإن وافق مصلحة الآخرين.

نستطيع أن نقول: إن التعميم خلل في منهجية التفكير والإستدلال، وحتى نتجنب هذا الوهم، ونتحاشى هذه الغلطة، علينا مراعاة وتنقيذ الأمور التالية:

١- التجرد والموضوعية قبل الحكم على الأشياء بالحسن أو القبح.
٢- ملاحظة تفاوت أغراض وحاجات الأفراد.
٣- إدراك الذات، وعدم السماح للعاطفة بالتأثير على أحكامه.
٤- مراعات تغير المصالح بتغير الظروف والأحوال، بما يستلزم معه تغير الأحكام، فما تستحسنه اليوم قد تستقبحه غدًا

فلا يمكن للإنسان أن يصل بتفكيره إلى نتيجة سليمة دون أن تتجمع لديه هذه الأدلة والبراهين، فالعلماء دائمًا يستندون إلى القواعد المنطقية السليمة في تفكيرهم قبل إبداء الرأي، وإصدار الأحكام، وإن عدم توافر الحجج والبراهين هي

السبب في الغلطات الشائعة بين الناس، مع أن القرآن الكريم قد أشار إلى أهمية المعرفة بالموضوع، والعلم به قبل إبداء الرأي فيه، ونهانا عن الحكم بدون علم ودراية وبراهين، فقال تعالى:**{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}**.(١)

فالتعميم في الحكم على الأشياء، من أكثر غلطات التفكير شيوعًا،وذلك بسبب عدم الالتفات إلى أغراض النفس، ناهيك عن أغراض الآخرين، وحاجاتهم، ثم عجز المرء عن اصدار أحكام مبنية على رؤية ثاقبة للأشياء.

**الغلطة الثانية:** وسببها عدم الإحصاء التام لأفراد أو جزئيات الشيء المحكوم عليه، أو عدم الاستقراء والاستيعاب لكل حالات الفعل.

فالإنسان قد يقع في الوهم، وينسى أن هناك استثناءات فيحكم على الفعل مطلقًا بالقبح أو الحسن، مع العلم بأن هناك من الأفعال ما هو مخالف في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة قد يغفل عنها؛ لرسوخ غالب الأحوال في نفسه، واستيلائه على ذكره.(٢)

فالكذب – مثلًا– يحكم عليه الإنسان بأنه قبيح مطلقًا؛ لأنه تربى منذ نعومة أظفاره على قبحه، وأنه لا ينبغي له الكذب، فيلازمه هذا الاعتقاد حتى يرسخ لديه قبح الكذب لذاته، مع أنه لو تتبع كل أحوال الكذب لعلم أنه قد يستحسن بل قد يجب في بعض الأحوال، فالكذب في الاصلاح، وبين الزوجين، ومع الأعداء، وفي الحروب للمصلحة العامة مباح، روى الإمام مسلم، من حديث أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ يَقُولُ:" **لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا، وَيَنْمِي خَيْرًا**"، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا"(٣)ويجب الكذب في حالة ما إذا كان هناك مفسدة كبرى ستقع، كمن أشهر سلاحه ويسأل عن فلان يريد قتله وأنت تعلمه، ففي هذه الحالة يجب عليك الكذب، تجنبًا لوقوع كبيرة من الكبائر.

---

(١) سورة الاسراء، الآية:٣٦.

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الآداب، باب: ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس، جـ٨ صـ٢٨.

ويؤكد الإمام الغزالي على أن التعميم الناتج عن الاستقراء الناقص[١] ليس صحيحًا من الناحية المنطقية مادامت الحالات التي يشملها الاستقراء تختلف عن الحالات التي استقرأناها، فليس من حقنا أن نستنتج أنها جميعًا تشترك في حكم واحد، يقول الإمام لغزالي:"ولا يكفي في تمام الإستقراء، أن تتصفح ما وجدته شاهدًا على الحكم إذا أمكن أن ينتقل عنه شيء، كما لو حكم إنسان بأن كل حيوان يحرك عند المضغ فكه الأسفل؛ لأنه إستقرى أصناف الحيوانات الكثيرة، ولكنه لما لم يشاهد جميع الحيوانات لم يأمن أن يكون في البحر حيوان هو التمساح يحرك عن المضغ فكه الأعلى على ما قيل".[٢]

لذلك كان من الواجب، الاستقراء التام لكل أفراد الشيء، وحصر أقسامه، وإحصاء جميع جزئياته الظاهرة، وهو ما يسمى بالإستقراء التلخيصي؛ لأن الحكم العام الذي يصل إليه يكون تلخيصًا لكل الحالات التي تم بحثها.

**الغلطة الثالثة:** سببها سبق الوهم إلى العكس.

مما هو معلوم، أن هناك من الصفات ما هو أعم، وما هو أخص، فإذا ثبت الأخص ثبت الأعم دون العكس، فإذا قلنا هذا المخلوق حيوان لا يلزم أن يكون إنسانًا، أما إذا قلنا أنه إنسان ثبت تلقائيًا أنه حيوان، وإذا كان الإيمان أخص من الإسلام، كان ثبوت الإيمان ثبوتًا للإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فإثبات الأخص هو إثبات للأعم، وإثبات الأعم لا يلزم منه إثبات الأخص، هذا التلازم بين الأعم والأخص جعل البعض يرى الأعم ثابتًا، فيثبت معه الأخص فيقع في الوهم، ومن ثم في الخطأ.

---

(١) الاستقراء الناقص هو: الحكم على الكلي بما حكم به على بعض جزئياته، أو هو تتبع بعض جزئيات الكلي المطلوب معرفة حكمه، وينقسم الاستقراء الناقص إلى قسمين هما: الاستقراء المعلل وغير المعلل، أما الأول فهو ما يعّمم فيه الحكم على أساس من الإيمان بوجود علة الحكم في كل جزئياته، أما الثاني فهو: الذي لا يعتمد في تعميم أحكامه على التعليل.

(٢) معيار العلم في فن المنطق، الإمام/ أبي حامد الغزالي، صـ١٦٣، تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا، طبعة سنة ١٩٦١م، دار المعارف، مصر.

يقول الإمام الغزالي:" فإن ما رئي مقرونًا بالشيء، يظن أن الشيء –أيضًا– لا محالة يكون مقرونًا به مطلقًا، ولا يدري أن الأخص أبدًا يكون مقرونًا بالأعم، وأما الأعم فلا يلزم أن يكون مقروناً بالأخص".(١)

فالذي شاهد حية وهي تلدغه، وقد تشكلت في صورة حبل مبرقش اللون، فإنه إذا رأى بعد ذلك حبلًا مبرقشًا اللون، أو حية صناعية، فإنه يصاب بالهلع والفزع، قبل أن يتبين له أنه حبل، ويتوهم دون أن يفكر أنها حية صناعية؛ لأن لونها يشبه لون الحبل، وشكلها مماثل للحية الصناعية، ومنطقيًا فإن هذا لا يلزم من ذاك، فهو الآن ربط ما كان سابقًا بتلك الشكل، فرأى هذا الظاهر مثل تلك، فتذكر اللدغة فصار ينفر منها.

ويضرب الإمام الغزالي مثلًا يؤكد فيه سبق الوهم إلى العكس فيقول:" الانسان قد ينفر عن أكل الخبيص(٢) الأصفر لشبهه بالعذرة، فيكاد يتقيأ عند قول القائل إنه عذرة، يتعذر عليه تناوله مع كون العقل مكذبًا به، وذلك لسبق الوهم إلى العكس، فإنه أدرك المستقذر رطبًا أصفر، فإذا رأى الرطب الأصفر حكم بأنه مستقذر".(٣)

ومن الواقع نلاحظ أننا نستقبح بعض الأسماء، فأسماء الهنود والزنوج لما بها من قبح المسمى به إلى حد أنه لو سمى بها أجمل الناس لنفر الطبع عنه؛ لاستحضار الذهن صورًا غير صحيحة، وبالعكس نحب بعض الأسماء؛ لأنها مرتبطة بمسمى يلاقى قبولًا في خواطرنا، وهذا هو الغزو الفكرى الذي نتعرض له ولا نشعر به،وفي حياتنا اليومية، أشياء ننفر منها؛لأنها تذكرنا بحادث تلازم مع الشيئ المنفور منه، وعليه فإن كثير من القرارات الخاطئة منشأها هذه الغلطة.

فإقدام الناس وإحجامهم تابع لإنفعالاتهم النفسية، وليس لقرارتهم العقلية، فالأكثرية تقودهم مشاعرهم وأوهامهم، ولا ينصتون لصوت العقل.

والإمام الغزالى يقرر أن الأولياء هم الذين يحكمون العقل في الأمور؛ لأنهم تحرروا من عبودية الأوهام، واستجابوا لنداء الفطرة، فأصبحت الحقيقة عندهم

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٢.

(٢) الخَبيصُ من خَبَص الشيء بالشيء: أي خلطه، وهي حلواء مصنوعة من التمر والسمن، والجمع: أخبصة.

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٢.

هى التى ينطق بها ويقررها العقل، فهم الذين ظهرت لهم الحقيقة وأعانهم الله على اتباعها.

يقول الإمام الغزالى:" وأما اتباع العقل الصرف فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه ".(١)

ويضيف الإمام الغزالى أمثلة أخرى؛ ليؤكد بها على شيوع هذه الغلطة، وانتشار الأوهام والخيالات في التفكير الإنساني فيقول:" إن المرء إذا قال قولًا مقبولًا لمعتزلي صدقه وآمن به قبل أن يعرف قائله، فإذل علم أنه أحد خصومه فكريًا كـ "الأشعري" نفر طبع المعتزلي، وامتنع عن القبول، وسارع بالتكذيب؛ إذ كان قبح ذلك متأصلٌ في نفسه منذ الصبا، ونفس هذا الموقف يأخذه الأشعري من المعتزلي، بمعنى أنه إذا تقرر أمرًا معقولًا عند العامي الأشعري، ثم علم أنه مقولة معتزلي نفر عنه أو نفر عن قبوله بعد التصديق ويعود إلى التكذيب".(٢)

وهذا ليس طبع العوام وحدهم، بل طبع معظم العلماء فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل التقليد، بل أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل، وكل ذلك منشؤه الإستحسان والاستقباح، بتقديم الإلفه والتخلق بأخلاق منذ الصبا.

بالإضافة إلى ذلك إطلاق العنان للأهواء والإنفعالات النفسية تتدخل في الأحكام التى يصدرها الإنسان.

إن أكثر الخلق قوى نفوسهم مُطِيعَةٌ للأوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها، وأكثر إقدام الْخَلْقِ وإحجامهم بسبب هذه الأوهام، فإن الوهم عظيم الإستيلاء على النفس؛ ولذلك ينفر طبع الإنسان عن المبيت في بيت فيه مَيِّتٌ مع قطعه بأنه لا يتحرك ولكنه كأنه يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه.(٣)

و حتى نتخلص من هذه الغلطة ونجرد العقل عن شوائب الوهم، ونحترز من هذه الغلطة، يجب أن نراعي الآتي:

١- مجاهدة النفس، وإلزامها على إلغاء ذلك التلازم المسبب لسبق الوهم إلى ما اقترن بالشيء، وعدم التمييز بين الأشياء.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٣.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ٩٣.

(٣) المستصفى، صـ٤٨.

٢- التدريب الفعال من أجل التخلص من الانفعالات النفسية التي تسهم في بناء الأحكام.
٣- النظرة المجردة للأشياء حتى ندرك حقيقتها.

**نظرية الاشتراط، أو سبق الوهم إلى العكس بين الغزالي وبافلوف[١]**

لقد أشار الإمام الغزالي في الغلطة السابقة إلى أن الفكر الإنساني تسيطر عليه الأوهام التي تعطي الأشياء صفات غير حقيقية؛ وذلك بسبب طول اقترانها بما اثبت العقل اتصافه بتلك الصفات، أو قد يعود إلى معنى ما رابط بين الشيئين، كالتلازم وغيره من أنواع العلاقات، وقد سمى هذه الحالة" سبق الوهم إلى العكس".

كما وضح الإمام الغزالي أن ما قرن بالشيء يتوهم أنه الشيء، وأن الإنفعالات، والعادات، والمشاعر، تسهم في بناء الأحكام، وأن النفس متى توهمت شيئًا خدمتها الأعضاء، وتحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة.

وبعد ما يزيد عن ثمان وثلاثين وسبعمائة سنة من توصل الغزالي لهذه الحقائق، جاء عالم النفس الروسي "إيفان بافلوف" واعتقد أنه اكتشف نظرية جديدة هي" قانون الاقتران أو الاشراط"[٢] الذي ضج له العالم، واهتم به علماء النفس، وظنوا أن بافلوف أول من نادى به، وهذا غير صحيح؛ لأن الغزالي هو مؤسس هذا القانون،وغيره من النظريات المعتقد أنها نتاج الفكر الغربي.

والاستجابة الشرطية، أو التعليم الشرطي الذي نادى به بافلوف عبارة عن: نظرية في التعلم التلازمي، الذي يكتسب من تكرار الموقف نفسه، فيعطي رد فعل تكليفي تجاه منبه خاص.

وقد قام بافلوف بدراسة تجريبية على الكلاب، فلاحظ سيلان لعاب الكلب أثناء دق الجرس الذي اعتاده الكلب دائمًا عند تقديم الطعام إليه، ومع أن الجرس

---

(١) هو إيفان بيتروفتش بافلوف، عالم الفسيولوجيا الروسي، حاصل على جائزة نوبل للعلوم، يشتهر في مجال النفس باكتشافه للإشراط، وتطويره له في ميدان التعليم(موسوعة مشاهير العالم،الدكتور/ نبيل موسى، جـ٢صـ٥٨، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م، دار الصداقة العربية، بيروت- لبنان)

(٢) الغزالي عاش ما بين:٤٥٠- ٥٠٥هـ= ١٠٥٠-١١١١م، أما بافلوف عاش ما بين:١٨٤٩م- ١٩٣٦م، وبذلك تصبح الفترة الزمنية بينهما ٧٣٨سنة.

لا يتسبب وحده وبذاته في إفراز اللعاب، لكن الكلب ربط بين الإشارتين، الطعام والجرس؛ لتلازمهما، وأصبح الكلب يتفاعل مع الجرس دون وجود الطعام بالطريقة ذاتها التي تفاعل بها مع الجرس في وجود الطعام.(١)

هذا الترابط بين الإشارتين تم بناؤه داخل الجهاز العصبي للكلب، وتثبيته بقوة، إلى درجة أن أي إشارة يمكن أن تحل محل الأخرى دون أن تتسبب في أقل تغيير.

والإمام الغزالي يشير إلى التجربة السابقة فيقول:" إن النفس منا إذا توهم شيئًا خدمته الأعضاء، والقوى التي فيها، فحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة، حتى إذا توهم شيئًا طيب المذاق تحلبت أشداقه، وانتهضت القوة الملعبة فياضة باللعاب من معادنها".(٢)

وهذا النص يجعلنا نؤكد على أن الغزالي بحث هذه النظرية مبكرًا في كتابه "تهافت الفلاسفة" ولم يعترض عليه أحد، فإبن رشد لما استدرك على الغزالي بعض المسائل، في كتاب"تهافت التهافت" لم يعلق على ما قرره الغزالي في هذه القضية، مما يدلل على إصابة الغزالي، وريادته لهذه النظرية السلوكية.

*موازنة بين الغزالي وبافلوف:

لو أردنا عقد مقارنة بين ما أثبته الإمام الغزالي، وبين ما قال به الطبيب الروسي بافلوف حول نظرية" سبق الوهم إلى العكس أو الاشراط" كما سماها بافلوف لتبين التالي:

**أولًا:** كان السبب الرئيس لدراسة هذه النظرية هو البحث في معنى الحسن والقبح؛ وذلك في معرض الرد على المعتزلة، وهذه القضية تباينت حولها الآراء، وبذل العلماء فيها جهدًا لتجلية الحقيقة، وإقامة البراهين عليها حتى غدت قضية"الحسن والقبح" عنوانًا معروفًا لأهم بحث من بحوث أصول الدين: "علم الكلام" وأصول الفقه"منهج البحث والاستنباط في الشريعة الإسلامية".

ولعل أبرز من اهتم بكشف هذه الحقيقة، وتفنن في بيانها، وساق الأدلة عليها هو حجة الإسلام الإمام الغزالي.

---

(١) انظر علم النفس التربوي، الدكتور/ عبدالمجيد نشواتي، صـ٣٣٦، الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، دار الفرقان، عمان– الأردن.

(٢) تهافت الفلاسفة، صـ٢٣٥.

فهو الذي سار في طريق الكشف عنها إلى أن وصل إلى نظرية"سبق الوهم إلى العكس" أو ما يعرف في علم النفس بنظرية "الاقتران، أو الإشراط، أو رد الفعل الشرطي" وهو القانون الذي لا تزال الكثرة من الناس تربطه باسم العالم الروسي بافلوف، وتحسب أن أول مكتشف، ومنبه إليه.(١)

أما هدف الطبيب وعالم وظائف الأعضاء بافلوف، من وراء بحثه في هذه النظرية هو: دراسة الجهاز الهضمي (٢) ثم الانتقال إلى الجهاز العصبي؛ لأهميته في التعلم، وحينها اكتشف كيفية تكوين المنعكسات الشرطية، عند الكائنات الحية، ففسر بها ظاهرة التعلم، وعلى آثاره اقتفي مؤسس السلوكية "واطسون"(٣) ليجعل نظرية بافلوف أساسًا لتفسير السلوك الإنساني.(٤)

**ثانيًا:** أما الموازنة بين الغزالي، وبافلوف في هذه النظرية من حيث التسمية، فإن تسمية بافلوف هذه النظرية "بالإشراط" فيه عموم هو في جوهره تشكيل إرتباط بين المثير والإستجابة، أما تسمية الغزالي لها "بسبق الوهم إلى العكس" فتنطلق من الماهية والموضوع، واللتان هما أدق في إعطاء التعريف قيمة ذاتية، فالغزالي يعزو هذا القانون إلى قوة في النفس، هي القوة الوهمية، والسبب الكامن وراء هذا القانون هو الوهم، بينما يعزو بافلوف، وعلماء النفس هذا القانون إلى عملية الإشراط.

**ثالثًا:** أما من حيث المضمون، فإن الغزالي درس النظرية من الناحية الفلسفية، حيث أثيرت في معرض رده على المعتزلة، وغيرهم حول قضية "الحسن والقبح العقليين" أما بافلوف فدرسها من الناحية الطبية، بهدف بحث كل من الجهازين: الهضمي، والعصبي، أو فسيولوجية عملية الهضم، وخاصة

(١) من الفكر والقلب، محمد سعيد البوطي، صـ٣٢، دار الفقيه، الأمارات العربية المتحدة.

(٢) علم النفس التربوي، صـ٣٣٦.

(٣) السلوك الإنساني ارتكاسات فرد من الأفراد، منظور إليه في وسط، وفي وحدة من الزمن معينة، على إثارة أو مجموعه من التنبيهات(المعجم الموسوعي في علم النفس، نوربير سيلامي، جـ٣صـ١٣٤٧، ترجمة/ وجيه أسعد، طبعة سنة ٢٠٠١م، منشورات وزارة الثقافة، دمشق- سوريا) معنى هذا أن السلوك الإنساني، مجموعة التصرفات الداخليه والخارجيه التى يقوم بها الفرد خلال نشاطه اليومى من أجل إشباع حاجاته ورغباته.

(٤) نظريات التعلم، فوزي أيوب، صـ٢ ،٣، طبعة سنة ١٩٩٨م.

إفرازات الغدد الهضمية، ولا شك فإن الجانب الفكري أقرب إلى هذه النظرية من الجانب الطبي، مما يؤكد على براعة الغزالي، أما غير ذلك فإن المضمون متقارب إلى حد كبير بين العالمين، غير إن الغزالي له فضل السبق.

# الفصل الثالث
# أوهام العقل وأسبابها عند فرنسيس بيكون

**ويتكون هذا الفصل من مبحثين:**

**المبحث الأول:** حياته وفلسفته.

**المبحث الثاني:** أوهام العقل وأسبابها عند فرنسيس بيكون.

# الفصل الثالث

# أوهام العقل وأسبابها عند فرنسيس بيكون

قامت في أوربا حركت ثقافية كبرى، تسمى النهضة، أعقبت العصور الوسطى، وشكلت فترة انتقالية بين فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الحديثة، كما أن التركيز على العلوم أدى إلى حدوث تغير كبير في أهداف البحوث الفلسفية وتقنياتها، ومن ثم تحررت الفلسفة من روابطها مع الفكر اللاهوتي الموروث من القرون الوسطى.

ولقد كان فرنسيس بيكون الإنجليزي من أوائل الفلاسفة المؤيدين للمنهج العلمي، ومعظم المؤرخين يعتبرون بيكون من مؤسسي الفلسفة العصرية، وقد تصور بيكون عالمًا جديدًا، تتوافر فيه الثقافة، ويمكن تحقيقه بالبحث في قوانين الحياة ومجرياتها، وإنه بوصفه لهذا العالم قد تنبأ بما سوف يكون للتقدم في العلوم والهندسة التقنية من آثار حضارية.[1]

**المبحث الأول: نشأته وفلسفته.**

ولد " فرنسيس بيكون" بلندن في يناير سنة ١٥٦١م، إبان عصر الرشد؛ لأن العصور التي كانت قبله كما قال العقاد:" كانت عصورًا يفكر فيها العقل البشري بهيمنة من الوحي المسيطر عليه، ولا يجرؤ على التفكير لنفسه، والاستقلال برأيه وعمله، فلما نشأ بيكون كانت القارة الأوربية قد مضت شوطًا بعيدًا في التفكير المستقل، والبحث الطريف، والإستطلاع الذي لا يحجم عن مسلك من المسالك في عالم المجهول أيًا كان، وحيثما كان ".[2]

فهذا العصر شكل فكره ، وعمل على إخراج فلسفته بالإضافة إلى بيئته التي نشأ فيها، فقد كان أبوه " السير نيكولاس" حاملًا لأختام الملكة" إليصابات" وكانت أمه عميقة الثقافة، تحسن اللاتينية واليونانية، وتشيع لمذهب "جان كالڤن"[3]

(١) الموسوعة العربية العالمية، جـ١٧صـ٤٦٢، الطبعة الثانية سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعه، المملكة العربية السعودية.

(٢) فرنسيس بيكون مجرب العلم والحياة، عباس محمود العقاد، صـ ٦، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٣) كالفن جون(١٥٠٩-١٥٦٤م) فيلسوف ومصلح ديني لاهوتي،وأحد الزعماء الرئيسيين للإصلاح البروتستانتي، ولد في نوايون بفرنسا،وهو مؤسس المذهب الكالفيني =

شديدة التدين، وكان فرنسيس الأبن الأصغر، ودخل فرنسيس كلية الثالوث في جامعة "كمبردج" وهو في سن الثانية عشرة، فأظهر نبوغًا كبيرًا جدًا، ما لبث أن لفت نظر الملكة " إليصابات" فشجعته أمه على التحصيل العلمي[1] فكان تأثير هذه النشأة واضحًا في عقل بيكون الفلسفي.

التحق بكلية "ترينيتي" إحدى كليات جامعة "كمبردج" وهو في الثانية عشرة من عمره، وخرج منها بعد ثلاث سنين دون الحصول على إجازة علمية، وكان في نفسه ازدراء لما كان يدرس فيها من علوم على مذهب "أرسطو" ثم أقبل على دراسة القانون، وانتظم في سلك المحاماة، ثم انتخب عضوًا بمجلس النواب سنة ١٥٨٤م، ثم ترقى في المناصب القضائية حتى صار الوزير الأول سنة١٦١٨م.[2]

أما عن فلسفته ودوره العلمي، فقد كان يهدف إلى إصلاح العلوم وإقامتها على منهج الاستقراء بعدما كانت تقوم على طريقة القياس، وبالفعل وضع قواعده لعلم جديد يقوم على الملاحظة والتجربة، غايته تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعة، فإذا ما تأملنا فلسفة"فرنسيس بيكون" في كتابه "الأورجانون الجديد" وجدنا أن أهم ما تتميز به هذه الفلسفة هو: محاولة تنظيم المعرفة البشرية، عن طريق تخليص الفكر الإنساني من عبودية المنطق باستخدام الاستقراء بدلًامن القياس.

فعن المنطق عامة، والقياس خاصة، وأهمية الاستقراء، يقول بيكون في كتابه"الأورجانون الجديد" ما يلي:

أ- مثلما أن العلوم في وضعها الحالي لا تجدي نفعًا في اكتشاف نتائج جديدة، كذلك المنطق الذي بحوزتنا لا جدوى منه في اكتشاف العلوم.

---

=المنتشر (معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، صـ٧٠٥، الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٦م، دار الطليعة، بيروت – لبنان)

(١) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، جـ١صـ٣٩٣، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان؛ فرنسيس بيكون مجرب العلم والحياة، صـ٢٢.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسق كرم، صـ٥٣، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر.

ب- نسق المنطق الحالي يفيد في تثبيت وترسيخ الأخطاء-القائمة على الأفكار السائدة- أكثر مما يفيد في البحث عن الحقيقة، ومن ثم فإن ضرره أكبر من نفعه.

ت- لا ينطبق القياس على مبادئ العلوم، ولا جدوى من تطبيقه في المبادئ الوسطى، إذ إنه لا يجاري الطبيعة في دقتها، وهو من ثم يفرض الموافقه على القضية دون أن يمسك بالأشياء.

ث- يتكون القياس من قضايا، والقضايا من كلمات، والكلمات هي مقابلات رمزية لأفكار، وعليه فإذا كانت الأفكار نفسها - وهذا هو جزر المسألة- مختلطة ومنتزعه برعونه من الواقع، فلن يكون هناك ثبات فيما يبنى فوقها، لذا فلا أمل لنا إلا في الاستقراء الصحيح.

ج- لا شيء صحيح في أفكارنا سواء في المنطق أو في الفيزياء فلا: الجواهر ولا الكيف ولا الفعل ولا العاطفة ولا الوجود نفسه، أفكار واضحة، كلها أفكار وهمية، وغير محددة.[١]

فليس هناك، ولا يمكن أن يكون سوى طريقتين اثنتين للبحث عن الحقيقة وكشفها:

الأولى: تقفز من الحواس والجزئيات إلى أكثر المبادئ عمومية، ثم تنطلق من هذه المبادئ، وقد سلمت تسليمًا بصدقها.

الثانية: فتستمد المبادئ من الحواس والجزئيات ثم ترتقي في صعود تدريجي غير منقطع حتى تصل في النهاية إلى أكثر المبادئ عمومية، وهذه هي الطريقة الصحيحة، وإن لم يجربها أحد حتى الآن، وهذا هو الإستقراء الذي يرمي إليه بيكون، ويريد تطبيقه.

أما كتابه "الإحياء العظيم" وهو الخطة العامة لفلسفته وما "الأرجانون" إلا جزء منه، فإن هدفه في هذا الكتاب مساعدة الإنسان إلى الرجوع لسابق عهده، وهو السيطرة على الطبيعة، ويبدوا أن بيكون تأثر في هذه الفكرة بسفر التكوين،

---

(١) الأورجانون الجديد"ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة" فرنسيس بيكون، صـ١٩،٢٠، ترجمة/ عادل مصطفى، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣م، طبعة رؤية، القاهرة- مصر.

الذي أشار إلى أن الإنسان كانت له السيادة على المخلوقات، ثم فقد هذه السيطرة، ومن هنا جاءت دعوة بيكون.(١)

والذي دفعه إلى هذه الخطوة؛ اعتقاده أن العلم السائد في عصره يعتمد على النظر العقلي دون الاعتماد على التجربة، فهو يستند إلى المنطق الأرسطي الذي يعجز عن كشف أسرار الطبيعة، والسيطرة عليها، ولن يتسنى لنا هذه القدرة إلا باستكشاف حالات الموجود بالملاحظة والتجربة.

يقول فرنسيس بيكون:" لقد أجدبت الفلسفة مدة طويلة؛ لأنها كانت تحتاج إلى طريقة جديدة لتخصيبها، كما أن خطأ فلاسفة اليونان الكبير: هو أنهم صرفوا وقتًا طويلًا في النواحي النظرية، والقليل في الملاحظة، والبحث العلمي، ولكن الفكر ينبغي أن يكون مساعدًا للملاحظة لا بديلًا لها".(٢)

وتمهيدًا لقيام هذا المنهج كان عليه محاربة الوهام المسيطرة على عقول المفكرين والناس، وتطهير الفكر وتنقيته من التصورات السابقة، والآراء المتحيزة، قبل المضي قدمًا في استخدام منطقة الاستقراء الجديد.

لقد أراد فرنسيس بيكون تحرير العقل من الأغلال والقيود التي تكبله، وتحول دون سلامة التفكير، وحتى نحترز من هذه المكابح، بدأ بيكون يحصر هذه الأوهام، ويبين خطرها على الفكر الإنساني بأثره.

يقول بيكون عن هذه المعوقات:" تلك الأوهام والتصورات الزائفة التي استحوذت على الذهن البشري، وما زالت متجذِّرة فيه بعمق، فلا تجد الحقيقة منفذًا إليها، بل حتى إذا وجدت الحقيقة منفذًا فإن هذه الأوهام سوف تلاحقنا مرة

(١) يقول سفر التكوين: (وَقَالَ اللهُ:نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ*فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ*وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ) سفر التكوين، الإصحاح الأول، الفقرات: ٢٦، ٢٧، ٢٨.

(٢) قصة الفلسفة، ول ديورانت، صـ١٦٢، ترجمة الدكتور/ فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة المعارف، بيروت – لبنان.

أخرى في عملية تجديد العلوم نفسها، وتضع أمامنا العوائق مالم يأخذ البشر حذرهم، ويحصنوا أنفسهم منها قدر ما يستطيعون".[١]

(١) الأورجانون الجديد، صـ٢٨.

**المبحث الثاني: أوهام العقل[1] وأسبابها عند فرنسيس بيكون.**

لم ينظر بيكون للعقل إلا من حيث هو أداة تصنيف ينساق بما في تركيبة من عيوب إلى أوهام تشوه الأشياء، فمصدر الأوهام في فكر بيكون هو العقل نفسه، يخالفه في ذلك "ديكارت"[2] الذي يرى أن العقل يميز أفكاره بوضوح بعضها من بعض، كما أنه يربط كل فكرة بمناظرها في العلم الفيزيائي، ويضعها في مكانها الذي يناسبهافي صفة الفكر، ولهذا فإن مصدر الخطأ ليس هو العقل، وإنما مصدره تدخل من خارج في العملية الطبيعية العادية للعقل، وليس هناك سوى "الإرادة" فهي المسئولة من وجهة نظر "ديكارت" عن هذا الخطأ.

لكن"اسبينوزا"[3] يرفض ذلك؛ لأنه يرى أن الإرادة والفهم ليسا ملكتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى؛ذلك لأن اعتماد فكرة في الذهن معناه قبولها،وإنما مصدر الخطأ هو أن تجربتنا الحسية – أو كما يسميها اسبينوزا خيالنا– تسجل طبيعة جسمنا كما تتغير بواسطة البيئة المحيطة، وطبيعة سائر الأجسام بحسب ما تغير طبيعتنا نحن.[4]

على كل حال فإن بيكون يخالف علماء عصره، وينتهي إلى أنه لا يمكن أن نصل عن طريق الإصلاح الداخلي للعقل إلى التمكن في العلم وإثرائه، وأن

---

(١) يستعمل فرنسيس بيكون كلمة "وهم" بمعنى الصورة التي ترتسم في الذهن عن الحقيقة دون الحقيقة نفسها، أي الفكرة التي تؤخذ خطأ على أنها شيء وهي ليست بشيء في الواقع الخارجي، وهذه الأفكار هي مصدر الأخطاء كلها،وأول واجب على المنطق ان يتعقبها واحدة فواحدة فيمحها محوًا، ويجثها من أصولها.(قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود، صـ٦٢، طبعة سنة ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر؛ قصة الفلسفة، ول ديورانت، صـ١٦٣)

(٢) رينيه ديكارت(١٥٩٦- ١٦٥٠م) فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ" أبو الفلسفة الحديثة" وديكارت هو الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرنالسابع عشر الميلادي، كما كان بارعً افي علم الرياضيات، فضلاً عن الفلسفة، وأسهم إسهاماً كبيراً في هذه العلوم(معجم الفلاسفة، صـ٢٩٨)

(٣) سبينوزا باروخ أو بندكتس (١٦٣٢- ١٦٧٧م) فيلسوف هولندي ولد في امستردام ومات في لاهاي، وهو من أهم فلاسفة القرن السابع عشر(معجم الفلاسفة، صـ٣٥٩)

(٤) راجع موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، جـ١صـ١٤١.

العقل إذا ترك يجري على سليقته، إنقاد لأوهام طبيعية فيه، ويتعين حصر هذا الأوهام.

ولقد اصطلح "بيكون" على تسميتها بالأوثان أو الأصنام أو الاشباح مجازًا من باب البلاغة، وعنى بها الأفكار والموروثات التي تنحرف بالعقل، وتميل به عن قصده إلى الضلال والسخف كما فعلت الأوثان الحجرية وضلت من عبدها، فأبعدته عن الحق والثواب.

وقد استخدم "بيكون" هذا المصطلح -أيضًا- للدلالة على أوهام ليست مرتبطة بالعبادة الدينية، وهو استخدام دارج لهذا المصطلح منذ عهد اليونانيين.

وعن أنواع وأصناف الأوهام، يقول بيكون:

ثمة أربعة أنواع من الأوهام تُحْدِق بالعقل البشري، وقد قَيَّضتُ لكل منها اسمًا بغرض التمييز بينها، فأطلقت على النوع الأول"أوهام القبيلة" idola tribus وعلى النوع الثاني "أوهام الكهف" idola specus وعلى الثالث"أوهام السوق" idola fori وعلى الرابع"أوهام المسرح" idola theatric.(١)

**أولًا: أوهام القبيلة أو الجنس والنوع البشري.**

سميت بذلك؛ لوقوع كافة البشر في هذا النوع من الأوهام، ولكونها منغرسة في الطبيعة الإنسانية، وفي كل قبيلة أو جنس من أجناس الناس، فهي عبارة عن قصور في الفهم عند جميع الناس، فهم لا يروا الواقع كما هو وإنما يروه كما هم، وهذه الأوهام مبيته في الطبيعة البشرية، وفي الجنس البشري نفسه.

ولهذا النوع سسببان:

الأول: يقول عنه بيكون:" والذهن البشري أشبه بمرآة غير مستوية تتلقى الأشعة من الأشياء، وتمزج طبيعتها الخاصة بطبيعة الأشياء، فتشوهها وتفسدها".(٢)

فالمرآة غير المستوية التي يقصدها بيكون هما: ما يعرفا بالمرآتين المقعرة والمحدبة، وهما يكوَّنا صورًا تقديرية.

فالأولى: تكبر الأشياء، ومن الناس من يشبه هذا النوع من المرايا، قد جبل ذهنه وتشكل حتى صار مثلها تمامًا، يكبر الأشياء عما هي عليه في الواقع، فتراه يميل إلى تفخيم الأمور، وتهويلها؛ لأن عقله في الأساس يستقبل الحدث

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٢٨ ،٢٩.

(٢) الأورجانون الجديد، صـ٢٩.

مفخمًا هائلًا، فيصدر رد فعل في المقابل أكبر بكثير مما يقتضيه الأمر، ومن ثم نشاهد ونسمع المبالغة والتهويل في المواقف والتعبيرات، وإعطاء الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي.

والثانية: تصغر الأشياء، ومن الناس من يشبه هذا النوع من المرايا، فتراه في فهمه وإدراكه للأحداث والمواقف يميل في تحليلها على نحو أصغر مما هي عليه في الحقيقة؛ لأن إمكاناته العقلية تعمل دائمًا على استيعاب الأمور على شكل مصغرًا، فيترتب على ذلك قرارات دون المستوى، وأقل من المطلوب، والخبط في الأحكام.

وهناك نوع ثالث من الناس هو وسط بين الحالتين السابقتين، يمكن أن نقول: هو كامرآة المركبة من:المقعرة والمحدبة،تجده متخبط في تقديره للأمور ،وتصوره للأحداث، يميل إلى تصغير الكبير، وتكبير الصغير، يهلع في صغائر الأحداث، ولا يلقي بالًا للمحن والشدائد، وهذه الفئات الثلاث دائمًا ما تأتي قراراتهم خاطئة؛ لأنها صادرة عن اعتقادات مغلوطة، وتقديرات غير دقيقة.

وهذه المشكلة الذهنية قد تكون مرتبطة بآلية نقل الفكر من العقل إلى اللسان عند تحويل الفكرة في المخ البشري إلى كلمات ذات دلالة، وهي عملية ذهنية معقدة وليست مقصورة على العربية وحدها، وإذا كان السبب في هذه المشكلة عدم الدقة في اختيار عبارات وصيغ تترجم حقيقة ما في الذهن، فبوسع اللغة خلق خطاب لغوي منطقي، لا تعوزه الدقة، أما إذا كان السبب يكمن في برمجة الذهن نفسه، فهذا مرده وعلاجه عند العقلاء من الأدباء والمفكرين الذين يمتلكون القدرة على تعديل فكر من تكون مرآته الذهنية غير مستوية، وذلك بوضع آليات تعصم الذهن من الخطأ في الفكر، وإقامة موازين فكرية، وطرق تربوية تساعد العقل فتقومه وتقيمه.

أما العقل المعترف به عند"فرنسيس بيكون" هو العقل السوي الذي يشبه في نظره المرآة المستوية التي تظهر الأشياء على حقيقتها كما هي.

وهناك نمط من الناس على هذا المستوى، قد اكتمل عقله، واعتدل مزاجه، فهو يصدر القرارات الصحيحة المدروسة، التي تمثل الواقع، وتناسب الحدث، فهو عقل بناء، يدفع إلى التقدم والارتقاء.

وإذا كان بيكون يعتقد بأن العقل بحكم تكوينه قاصر في بعض الأحيان عن الادراك الكامل، فإن الإمام الغزالي قد توصل إلى هذه الحقيقة من قبل، وذلك

حينما صدّر لنا ذلك المشهد الدرامي الذي دار بينه وبين المحسوسات التي تحاول أن تثبت للغزالي أنه كما كان العقل سببًا في تشكيكه فيها، وفقد الثقه في معارفها، فلعل هناك حاكم وراء العقل يكذبه، ويسحب البساط من تحت قدميه، يقول الإمام الغزالي على لسان الحواس:" بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقًا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه".[(١)]

ويتوقف الإمام الغزالي مليًا عند هذا الكلام، ويحاول الربط بين ما يعيشه الإنسان في هذه الحياة، وبين ما يشاهده في منامه، فلعل الحياة التي نعيشها ما هي إلا حلم لا يوقظ الإنسان منه إلا الموت!! وهذا يدل على قصور العقل الإنساني في إدراكه لحقائق الأمور، يقول الإمام الغزالي:"فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلًا، وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورًا، وتتخيل أحوالًا، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا، ولا تشك في تلك الحالة فيها، وثم تستيقظ فتعلم: أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقد في يقظتك، بحس أو عقل، هو حق، بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها، فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة هي الموت، كما في قول القائل:" الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا ماتوا ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك كما قال الله عز وجل:{...**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**}.[(٢)(٣)]

السبب الثاني: أننا لا نرى الأشياء في حد ذاتها، وإنما ندركها كما تعالجها الحواس الإنسانية لدينا، فنحن نميل دائمًا إلى الإيمان بالحواس وتقديسها، وجعلها مقياسًا للأشياء، وهذا التسليم المطلق للحواس خاطئ؛ لأن الحواس لا يؤمن

---

(١) المنقذ من الضلال، صـ٩.

(٢) سورة ق، من الآية:٢٢.

(٣) المنقذ من الضلال، صـ١٠.

عليها الخطأ، إذ أنها قاصرة عن إدراك كل شيءٍ في الطبيعة من جهة، ومن جهة أخرى، هي منسوبة إلى الإنسان وليس إلى العالم، فهي ترسم خطوط الطبيعة بالإطار المرجعي للإنسان لا الإطار المرجعي للعالم والطبيعة، يقول فرنسيس بيكون:" الرأي القائل بأن حواس الإنسان هي مقياس الأشياء، إنما هو رأي خاطئ، فالإدراكات جميعًا: الحسية والعقلية، هي على العكس منسوبة إلى الإنسان، وليس إلى العالم".[1]

فعقولنا تفرض على العالم الخارجي نظامًا مستمدًا من أنفسنا، فللنفس فاعلية تؤثر في الإدراك؛ لأن للأعمى أوهام بصرية، وللأصم أوهام سمعية، وللبصير أوهام بصرية لا تزول بإغماض العينيين.

وهذا النوع من الأوهام، يفسر لنا ولع الإنسان بالخرافات، والأكاذيب المصدرة من الحس والخيال، كالسحر والجدل والتطير وغيرهما، حيث تجد الناس – كما يقول بيكون– وقد استهوتهم هذه الضلالات، يلتفون إلى الأحداث التي تتفق معهم، أما الأحداث التي لا تتفق، رغم أنها الأكثر والأغلب، فيغفلونها، ويغضون عنها الطرف.[2]

وهكذا يسرع الناس إلى ملاحظة ما يؤيد آراءهم وعقائدهم، ويهملون أو يتجاهلون كل ما ينهض على بطلان تلك الآراء والمعتقدات.

ويسوق بيكون مثلًا على ذلك، قصة رجل ينكر تأثير النذور، فسيق إلى معبد "وأطلعوه على معلقة بالمعبد لأناس دفعوا نذورهم، ومن ثم نجوا من حطام سفينة، عساه أن يعترف الآن بقدرة الآلهة، فما كان جوابه إلا أن قال: حسنًا، أين صور أولئك الذين غرقوا بعد وقع النذور؟!.[3]

فلا تركن وتميل إلى ما تهواه أنت، بل لا بد أن تنظر إلى الموضوع من شتى جوانبه فلعل أن يكون هناك ما يهدم ما تختار وتهوى.

وإذا كان فرنسيس بيكون قد لفت الأنظار إلى خطر الاعتماد على الحواس، فإن الإمام الغزالي قد سبقه في هذا، وذلك أثناء بحثه عن العلم الحقيقي، وفي هذه الرحلة ظهر له:"أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا

(١) الأورجانون الجديد، صـ٢٩.
(٢) الأورجانون الجديد، صـ٣٣.
(٣) الأورجانون الجديد، صـ٣٣.

يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنًا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه –مثلًا– من يقلب الحجر ذهبًا والعصا ثعبانًا، لم يرث ذلك شكًا وإنكارًا.(١)

وبعدما حدد الإمام الغزالي معيار المعرفة الإنسانية اليقينية التي يبغاها ويطلبها، وجد أن علومه التي اكتسبها لا يتوفر فيها هذا المعيار، فبدأ رحلته إلى اليقين بإختبار معطيات الحس؛ لكونها المرحلة المعرفية الأولى، وعن ذلك يقول:" فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟".(٢)

وينتهي الغزالي إلى فقد الثقة بالمحسوسات، بعد أن تبين له تضليل الحواس للعقل من خلال معطياتها، أو مدخلاتها المعرفية له، ثم أخذ الغزالي يؤكد ذلك من خلال التجربة والمشاهدة، فيقول:"من أين الثقة بالحواس؟ ؛وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة – بعد ساعة– تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغته، بل بالتدرج، حتى لم يكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار، هذا وأمثاله من المحسوسات، يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات".(٣)

فالحواس تخدعنا أحيانًا، ومن الحكمة والفطنة ألا نركن ونطمئن إلى كل من خدعنا؛ ولهذا تصبح المعارف الحسية عارية عن اليقين، فلا تعد علمًا حقيقيًا، ولا يعتد بها في عملية البحث عن الحقيقة.

**ثانيًا: أوهام الكهف.**

وهذه التسمية ليست بجديدة، فقد استعارها من قصة الكهف التي عرضها "أفلاطون" في الكتاب السابع من سفره "الجمهورية" ومفادها: أن الإنسان سجين

---

(١) المنقذ من الضلال، صـ٦.

(٢) المنقذ من الضلال، صـ٧.

(٣) المنقذ من الضلال، صـ٩.

حواسه، فلا يدرك إلا ماهو محسوس، وهذا المحسوس في نظر أفلاطون لا يمثل إلا ظل الحقيقة، ومع ذلك تعتقد بأنه هو الحقيقة بعينها، ولن نصل إلى اليقين إلا إذا تحررنا من قيود الحواس خاصة، والجسد عامة.(١)

واقتضاءًا بأفلاطون شبه فرنسيس بيكون الطبيعة الخاصة لعقل كل إنسان بالكهف، بجامع الافتقار إلى الاستنارة في كل، فقصور فهم الفرد، وجموده، وتحيزه لميراثه الفكري، ومزاجه الشخصي، وظروفه الحياتية، بمثابة الظلام الذي يحول بينه وبين النور، كمن يعيش في غيابات كهف مظلم تحجبه عن ضوء الشمس، فما من إنسان إلا وهو محاط بدهليز من دهاليز هذا الكهف، وهذا يكسبه الطبيعة الفردية، ويجعله سجين كهفه، تعوقه أوهامه عن الرؤية الحقيقية، وهو لا يشعر؛ لما يلاقيه من متعة لكونه قد أشبع رغبات نفسه، وهذا يوقعه في الوهم والغلط، فنظرته قاصرة، وفكره محدود، وقد أصبح لا يعرف غير عالمه المظلم، فهو يأوي إلى ما يلائمه من الخواطر والأحاسيس.

ولما اختلفت منابع الفكر الإنساني بإختلاف الأفراد، كان هناك جوانب هي الأكثر خطرًا، والأشد إفسادًا لصفاء الفهم، ومنها:

١- تأثر الشخص، وميله إلى معارفه، وأفكاره الخاصة، وصبغه كل إنتاجه العلمي بهذا اللون لكي يلائم خيالاته المسبقه، ومعارفه الأولى، وفي ذلك محدودية للفكر، وضيق للأفق، والشاهد على ذلك عند بيكون، الفيلسوف اليوناني "أرسطو" الذي أخضع فلسفة الطبيعة لمنطقه.

٢- هناك نوعين من العقول: أحدهما: مخصص لإدراك الفروق بين الأشياء، والآخر: لملاحظة التشابهات بينهما، أي أن بعضها يميل إلى التحليل فيقف على المتباين والمختلف بين الأفكار، والآخر إلى البناء والتركيب، فيربط بين الأشياء، ويرى بيكون أن كلا الصنفين عرضة للشطط؛ لكونه يتشبث بالفروق التافه، أو بخيلات التشابه.

٣- الناس بين القديم والجديد ثلاث طوائف:

الأولى: اشربوا في قلوبهم القديم، فلا مجال لقبول الجديد.

---

(١) انظر المحاورات الكاملة، الجزء الأول الجمهورية، صـ٣١٧، ترجمة/ شوقي داود تمراز، طبعة سنة ١٩٩٤م، دار الأهلية، بيروت- لبنان.

الثانية: تعلقت بالجديد، فهو المدنية، والحضارة الحقيقية عندهم، أما القديم فقد عفا عليه الزمن، فلكل عصر تفصيلته الخاصة به.

الثالثة: فهي القلة الواعية، المدركة للحقيقة؛ لكونهم وقفوا موقف الاعتدال، فأبقوا على القديم الصالح، ولم يبخسوا القدماء انجازاتهم الصائبة، ولم يزدروا الاسهامات الحديثة، وهذه رؤية ثاقبة، فالأحكام المستبصرة لا تصدر عن هوى أو تعصب وتحزب.

٤- تنشغل بعض التيارات الفكرية بإدراك الجزئيات، والبعض الآخر بإدراك الكليات:

فالأول: يلاحظ الطبيعة، والأجسام في أجزائها البسيطة، وعيون هذه النظرة، أنها تكسر الفهم وتشتته.

الثاني: يلاحظ الطبيعة، والأجسام في تكوينها الكلي، وبنيتها المركبة، وهذا من شأنه أن يُذهِل الفهم ويوهنه.

فالمدرستين: أحداهما يهتم بالجزئيات إلى حد إغفال البنية المتكاملة، والثانية أنبهرت بمشاهدة البنية فلا تكاد تنفذ إلى بساطة الطبيعة، والذي يجب أن يتبع: أن يتناوب هذين الصنفين من الملاحظة، بحيث يصبح الفهم ثاقبًا وشاملًا في الوقت نفسه، ومن ثم نتلافى العيوب المذكورة لكل من الفريقين، والأوهام التي تنجم عنهما.

ثم يذكر بيكون طريق الخلاص من أوهام الكهف فيقول:" على كل دارس للطبيعة أن ينظر بارتياب إلى كل ما يفتن عقله، ويأخذ بلبه، وأن يجعل ذلك همه الأكبر في هذا الصنف من البحث، كيما يحفظ ذهنه صافيًا ومتوازنًا".[١]

وهذا الكلام يؤكد على أن بيكون متأثرًا بالغزالي، فما ذكره هو بعينه منهج الشك الذي أثنى عليه الغزالي، وأشار إلى أن:" الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقى في العمى والضلال".[٢]

(١) الأورجانون الجديد، صـ٤١.

(٢) ميزان العمل، صـ٤٠٩.

فالغزالي اتخذ الشك منهجًا إلى اليقين، فهو عنده أول مراتب اليقين، وهذا المنهج لم يرثه الغزالي من أحد، بل هو الذي ورثه وأثر في" ديكارت" و"بيكون" رائدا الفلسفة الحديثة، والنهضة الأوربية.

فمعنى قول بيكون:"إن المرء ينظر بارتياب إلى كل ما يفتن عقله" هو الشك المنهجي الموصل إلى العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنا يكون مقارناً لليقين كما قال الغزالي[١] الذي لفت الأنظار قبل بيكون إلى هذا النوع من الأوهام، وذلك حين ضرب لنا مثالًا يوضح فيه ما يترتب على قصور الفهم، ردًا منه على من استغنى بالمعرفة عن الشرع فيقول له:" مثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن، مثل رجل بنى له أبوه قصرًا على رأس جبل، ووضع فيه شدة من حشيش طيب الرائحة، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى، أن لا يخلي هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره، وقال إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه.

فزرع الولد حول القصر أنواعًا من الرياحين، وجلب من البر والبحر أوقارًا من العود والعنبر والمسك، وجمع في قصره جميع ذلك مع شدات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة، فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح، فقال: لا أشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته، والآن قد استغنيت بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق على المكان، فرماه من القصر، فلما خلا القصر عن الحشيش، ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك، فتفطن وتنبه حيث لم ينفعه التنبه، أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة.

وكان لأبيه في الوصية بالحشيش غرضان: أحدهما: انتفاع الولد برائحته، وذلك قد أدركه الولد بعقله، والثاني: اندفاع الحيات المهلكة برائحته، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد، فاغتر الولد بما عنده من العلم، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله، كما قال تعالى:**{ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}**[٢] وقال:**{ فَلَمَّا**

(١) المنقذ من الضلال، صـ٦.

(٢) سورة النجم، من الآية:٣٠.

**جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ }**(١) والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتف في نفسه".(٢)

ولقد تحدث القرآن عن هذا النوع من الأوهام في عدة آيات منها على سبيل المثال، الآية آنفة الذكر، وفيها يبين الله – عز وجل– زعم هؤلاء: أن المعرفة محصورة فيما أدركته الحواس، وأثبتته التجارب البشرية، وأن عندهم علم ينتفعون به، ولم يلتفتوا إلى ما وراء ذلك، وياليتهم أدركوا أن هذه الوسائل قاصرة في إدراك الحق، والوقوف على الحقيقة.

وتسمية ما لديهم علمًا، مع أن الاعتقاد الغير مطابق للواقع حقه أن يسمى جهلًا؛ للتهكم بهم، فهي علم على زعمهم لا في الحقيقة، والمراد به علم الفلاسفة، فإن الحكماء كانوا يصغرون علوم الأنبياء، ويكتفون بما يكسبونه بنظر العقل.(٣)

ويحكي ربنا – تبارك وتعالى– عن إبليس أنه وقع في هذا النوع من الأوهام، وذلك في قوله:**{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}**(٤) فلقد بنى أحكامه على مالديه من علم، وتصور أنه يملك زمام الصواب والحق، فوقع في الخطأ؛ وذلك لأنه توهم أن النار أفضل من الطين، فقاس معتقدًا أن ما يخلق من الأفضل فهو أفضل من الذي يخلق من المفضول، فقاس نفسه على عنصره، الذي هو النار، وقياس آدم على عنصره، الذي هو الطين، واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم، ولا ينبغي أن يأمر بالسجود لمن هو خير منه.

وهذا قياس عقلي مكون من قضيتين حمليتين:

إحداهما: قوله" أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ " فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة، تقديرها و"الفاضل لا يسجد للمفضول".

---

(١) سورة غافر، من الآية:٨٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، الإمام/ تاج الدين السبكي، جـ٦صـ٢٧٠ ،٢٧١، تحقيق الدكتور/محمود الطناحي والدكتور/عبد الفتاح الحلو،الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ، دار هجر.

(٣) روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي، جـ٨ صـ٢٢٠، دار الفكر، بيروت – لبنان.

(٤) سورة الأعراف، من الآية:١٢.

الثانية: تقديرها: ومن خلق من نار أفضل ممن خلق من طين، فهما قياسان متداخلان، وعلى هذا يكون القياس الأول:"أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ"وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه، وهو من الشكل الأول.

والقياس الثاني: خلقتني من نار، وخلقته من طين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فالنتيجة: أنا خير منه، ونتيجة الأولى ولا ينبغي لي أن أسجد له.[١]

وهذه الشبهة مركبة من مقدمتين:

الأولى: أن النار أفضل من التراب.

الثانية: وهي من كانت مادته أفضل، فصورته أفضل.

وهذا القياس في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار؛ لوجود النص الصريح، وهو قوله تعالى:{ **اسْجُدُوا لِآدَمَ**}[٢] والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس، أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعًا لها، فأما قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاءُ النصوص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة[٣]هذا أولًا.

وثانيًا: أننا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح، فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة، والنواة فيعطكها نخلة، والناظر إلى الحدائق الغناء، والرياض النضرة، يدرك قيمة الطين، وأنه يفوق النار في الأفضلية.

وثالثًا: لأنه لما كانت الفضيلة عطية من الله ابتداءً لم يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة، ألا ترى أنه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، والنور من الظلمة والظلمة من النور، وذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله تعالى لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر... وأيضاً فالفضل إنما يكون

---

(١) نقض أصول العقلانيين، سليمان بن صالح الخراشي، جـ٨ صـ٤٩ ،٥٠، دار علوم السنة.

(٢) سورة البقرة، من الآية،٣٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام/السعدي، صـ٢٨٤، تحقيق/عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

بالأعمال، وما يتصل بها لا بسبب المادة، ألا ترى أن الحبشي المؤمن مفضل على القرشي الكافر!.(١)

ومن الآيات التي تشير إلى هذا النوع من الأوهام، قوله تعالى:**{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}**(٢) فالآيتان الكريمتان، يحكيان: حال كثير من الناس، توهموا أنهم بفعلهم على الهدى حسب ظنهم، وهم في واقع الأمر على ضلال مبين، ثم يظهر لهم بعد ذلك: أن اليقين ما نزل بهم، وأن الذي علموا لم يكن علم حقيقي، بل كان وهمًا وحسبانًا.

وهذه الآيات إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن القرآن الكريم لم يترك مجالًا يوجه الناس إلى الحق والصواب إلا كانت له الأسبقية في بيانه وتوضيحه، وصدق الله العظيم إذ يقول:**{ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}**.(٣)

**ثالثًا: أوهام السوق.**

وهذا النوع يرصد مواضع الخطأ أثناء استخدامنا للغة، وهي ترجع إلى قصور الألفاظ في ترجمة الأفكار عندما تفقد دلالتها، وتعبيراتها الصادقة، يقول بيكون عنها:"هي أكثر الأوهام إزعاجًا، تلك الأوهام التي اتسربت إلى الذهن من خلال تداعيات الألفاظ والأسماء".(٤)

وكلمة سوق، وإن كانت تحمل معنًا اقتصاديًا من: بيع وشراء، إلا أن بيكون قصد من وراء هذا الإطلاق أن يشير إلى أهم الأماكن التي يتبادل فيها الناس الألفاظ، فهذا الميدان العام، أو الساحة الكلامية الأوسع، هي أماكن تواصل الناس، واجتماعاتهم.

أو أنه قصد أن الناس يتبادلون الحديث باللغة التي صُنِعت كلماتها وفقًا لعقلية السُّوقة (٥) أو أن بيكون أراد تشبيه عملية تبادل الأفكار بين الناس، بما يتم في السوق من تبادل للسلع، إذ أن الناس متى اجتمعت كما تجتمع في السوق لا

---

(١) مفاتيح الغيب، جـ١٤صـ٢٨.
(٢) سورة الكهف، الآيتان:١٠٣ ،١٠٤.
(٣) سورة الأنعام، من الآية: ٣٨.
(٤) الأورجانون الجديد، صـ٤٢.
(٥) السُّوقة: الرَّعيَّةُ أو أوساطُ الناس وتطلق على الواحد وغيره.

تملك أداة للمنافسة، وتبادل الأفكار سوى الألفاظ التي تستخدم بغير تدقيق وعناية بالحقيقة، والسبب في ذلك؛" لأن الألفاظ تكوَّنت في معظمها لكي تلائم قدرة العامة من الناس، وهي تحدد الأشياء بخطوط تقسيم تَسهُل على الذهن العامي، وإذا أراد ذهن أكثر حدةً، أو ملاحظة أكثر تدقيقًا أن تغير هذه الخطوط لتلائم التقسيمات الأصوب للطبيعة، فإن الألفاظ تعترض الطريق، وتقاوم التغيير"(١) فينشأ عن سوء تكوينها، ومن عجزها تعطيل شديد للعقل، ومن ثم تنتهي كثير من الحادثات العلمية، والفكرية إلى خلافات حول الألفاظ، وأسماء بدلًا من الاهتمام بالموضوع ذاته.

فالكلمات صورة المادة، والإنسان كثيرًا ما يهتم بالصورة التي قد تعطيه مفهوم مخالف لهذه المادة، إنها ثقافة مؤسسة على خلل أصلي في العلاقات بين الأسماء والأشياء، بل ليس في هذه الثقافة أشياء، كلها ألفاظ واستيهامات، والمعرفة فيها لا تنشأ من استقراء الطبيعة، والأشياء وتغيراتها، وإنما تنشأ على العكس من استقراء المقروء: النصوص وتأيلها، المعرفة بحسب هذه الثقافة أقل من أن تكون ظاهرة صوتية أو أنها ظاهرة كلامية.(٢)

ويرصد لنا بيكون نوعين من الأخطاء، تفرضهما اللغة، وهما من مسببات الخلل في الإدراك:

الأول: أن هناك أسماء لأشياء لا وجود لها، فهي تفتقر إلى ذوات؛ لأنها وليدة افتراضات خيالية لا تناظرها أشياء في الواقع، من هذا الصنف عبارة "المحرك الأول"و"الأفلاك الكوكبية"إلى غير ذلك من الخيالات التي تعود في نشأتها إلى النظريات الزائفة العقيمة، والسبيل إلى الخلاص من هذه الفئة هو استئصالها بواسطة التنفيذ المستمر، أو التخلي عن النظريات من أساسها.

الثاني: أن الأسماء قد تكون لأشياء موجودة، لكنها مختلطة، وغير محددة؛ لأنها انتزعت من الأشياء على عجل، ودون تدقيق، مثال ذلك: كلمة "رطب" التي تعددت معانيها وتباينة، إلى درجة يصعب معها الوقوف على معنى بعينه، فهي على حد قول بيكون تشير إلى:" ذلك الذي ينشر نفسه حول شيء آخر،

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٤٢.

(٢) موسيقى الحوت الأزرق، الدكتور/ أحمد علي سعيد أدونيس، صـ٢١٣، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م، دار الآداب، بيروت – لبنان.

وذلك الذي لا تخوم له ولا ثبات، وذلك الذي يستسلم في كل اتجاه، وذلك الذي يسهل انقسامه، وتناثره، وذلك الذي يسهل تدفقه وتحريكه، وذلك الذي يسهل التصاقه بجسم آخر وترطيبه، وذلك الذي يُرد بسهولة إلى الحالة السائلة، أو هو صلب يسهل انصهاره، ومن ثم فإذا أتيت إلى استعمال هذا اللفظ، ستجد من جهة أن اللهب رطب، ومن جهة أخرى، أن الهواء رطب، ومن أخرى أن التراب الدقيق رطب، ومن أخرى أن الزجاج رطب، هكذا يتبين بسهولة أن التصور قد انتزع على عجل من الماء، والسوائل الشائعة، والعادية فحسب، بدون أي تمحيص واجب".[١]

مما سبق يظهر أن اللغة المشتركة لا تكون إلا حجابًا على الواقع مهما تُفِنن في تفسيره، وما نحتاج إليه، هو خرق هذا الحجاب، ولا يتحقق هذا الخرق إلا بلغة تخرق تلك اللغة العامة المشتركة، مع العلم بأنها لابد أن تكون لغة خاصة، ويرى بيكون، أنه يجب علينا أن نواجه الأشياء مباشرة، بدلًا من الاكتفاء بمواجهتها من خلال الألفاظ اللغوية.

**رابعًا: أوهام المسرح.**

وهي الأوهام التي تسربت إلى عقول الناس من قضايا الفلاسفة، وأخطائهم في القياس والاستدلال[٢] أو هي: الأوهام التي انحدرت إلى العقل من مذاهب الأقدمين وعقائدهم وهي: التسليم ببعض المذاهب الفلسفية دون بحث.

وسميت بذلك: نسبة إلى أن الأنظمة الفلسفية التي يتلقاها كل جيل عن أسلافه، ليست إلا روايات مسرحية تمثل أكوانًا خلقها الفلاسفة بفكرهم خلقًا كما يخلق الروائي أشخاص روايته وحوادثها، فليس العالم الذي يصوره "أفلاطون" مثلًا إلا عالمًا بناه هو، وصوره كما شاء له عقله وخياله، وقد لا يتفق مع الحقيقة الواقعة في شيء.[٣]

فبيكون يعتقد أن نتاج الأقدمين يشبه المسرحيات الممثلة المخترعة، لا يناظرها شيء في الواقع الحقيقي، مع العلم بأن لها بالغ الأثر في نفوس الناس.

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٤٤.

(٢) فرنسيس بيكون، مجرب العلم والحياة، صـ٦٥.

(٣) قصة الفلسفة الحديثة، صـ٦٦.

يقول فرنسيس بيكون:" وفي مسرحيات هذا المسرح الفلسفي، قد تلاحظ نفس الشيء الموجود في مسرح الشعراء: أن القصص المؤلَّفة للمسرح أكثر تماسكًا ووجاهة، وإمتاعًا من القصص الحقيقية في التاريخ، وأقرب لرغبات الناس".(١)

ويذكر بيكون ثلاثة أنواع من الأوهام في هذه الفئة، يمثلها ثلاث مدارس من الفلاسفة وهم:

**المدرسة الأولى:** وهي المدرسة النظرية، ويمثلها فلاسفة اليونان، وعلى رأسهم "أرسطو"، يقول بيكون عن علوم اليونان:" إن الحكمة اليونانية كانت احترافية، وميالة إلى الجدل، وذلك لون من الحكمة معاكس للبحث عن الحقيقة، وهكذا فإن اسم"السوفسطائيين" المرفوض بإزدراء يمكن أن ينطبق على العشيرة بأكملها: أفلاطون، وأرسطوا، وزينون، وغيرهم، وهؤلاء كانوا مرتزقة جوالين، يطوفون بين البلدان المختلفة، ويعرضون حكمتهم، ويطلبون أجرًا عليها".(٢)

ويقول:" ليس لدينا حتى الآن فلسفة طبيعية في حالة خالصة، بل لدينا فلسفة طبيعية مشوبة ومفسدة، مفسدة في فلسفة أرسطو بالمنطق، وفي فلسفة أفلاطون باللاهوت الطبيعي، وفي المدرسة الأفلاطونية الثانية بالرياضيات، التي عليها أن تضع حدودًا فحسب للفلسفة الطبيعية".(٣)

ولقد عارض بيكون فلاسفة اليونان عامة وأرسطو خاصة لسببين:

**الأول:** دعوتهم للعلم النظري الخالص، واحتقارهم للتجربة، بينما هو كان يدعو إلى العلم القابل للتطبيق، المبني على التجربة والملاحظة، يقول بيكون:" أفضل برهان على تطهير العقل هو التجربة، شريطة أن يبقى ذلك لصيقًا بالتجربة الفعلية، أما الطريقة التي يجري بها الناس التجارب في الوقت الحالي، فهي طريقة عمياء بلهاء، ومن ثم فإنهم يهيمون ويتخبطون دون أي مسار واضح، مرتهنين للمصادفات، يتأذون منها هنا وهناك دون أن يحرزوا تقدمًا يذكر...ذلك أن الناس في الأغلب يُجرون تجاربهم بغير اكتراث ولا جدِّية،

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٤٦.
(٢) الأورجانون الجديد، صـ٦٦.
(٣) الأورجانون الجديد، صـ٩٦.

واضعين تنويعات ضئيلة على التجارب المعروفة بالفعل، فإذا لم تُجبهم التجربة بشيء تبرموا بها، وأقلعوا عن المحاولة".[١]

**الثاني**: خاص بالإستقراء الأرسطي والقياس، أما الإستقراء: فقد رأى بيكون أنه يعتمد في الوصول إلى قوانين الطبيعة على طريقة الإحصاء البسيط للأمثلة الجزئية الإيجابية، وهذا عيب؛ لأن مثلًا واحدًا منافيًا يكفي لنقض تلك الأمثلة المؤيدة بأسرها، وهدم النتيجة المستخلصة، ليس هذا فحسب، بل إن البحث لم يتسع حتى يشمل نطاق الأمثلة الجزئية كلها، وحتى لو شملها، لكنه وقف عند حد الأمثلة التي تؤيد القانون، وذلك جانب واحد من جوانب الظاهرة.

يقول بيكون:" الإستقراء الذي نستخدمه خاطئ؛ لأنه يقرر مبادئ العلم بناءً على التعداد البسيط دون استخدام الاستيعاب والفصل، أو التحليل الصحيح للطبيعة".[٢]

معنى ذلك أن الإستقراء يرد في نهاية الأمر إلى قياس تكون مقدمته الكبرى نتيجة لعملية إحصاء يقوم على الأمثلة الإيجابية، والأمثلة الإيجابية وحدها بدون الأمثلة السلبية لا تعطينا يقينًا، فالإستقراء هنا هو تعداد بسيط.

أما القياس فليس أداة للكشف عن حقائق الكون، وإنما هو أداة لعرض الحقائق، وإقناع الخصوم بها، وهو أداة تشوبها عيوب، يقول عنه بيكون:" إن طريقة الكشف والبرهان التي تبدأ بوضع المبادئ الأعم ثم تجعل منها مَحِكًا للمبادئ الوسطى فتختبر المبادئ الوسطى بمضاهاتها بالمبادئ العامة، هذه الطريقة هي أم الأخطاء، وهي كارثة كل العلوم".[٣]

من هذه الأخطاء: أنه يتألف من قضايا تتكون من ألفاظ، فإذا كانت هذه مختلطة في الذهن، كان القياس كله مختلطًا، ثم هو في اقتصاره على عرض القديم دون اكتشاف الجديد يكون منهجًا عقيمًا، كذلك يشوبه عيب أساسي هو: أن قضاياه العامة تكون في الأغلب نتيجة تسرع في التعميم، وهو ما يسميه بيكون بـ"استباق الطبيعة".

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٥٩.

(٢) الأورجانون الجديد، صـ٥٨.

(٣) الأورجانون الجديد، صـ٥٨.

بالإضافة إلى ذلك فإن القياس الأرسطي – فيما يرى بيكون– وسيلة عقيمة؛ لأنك تضطر إلى التسليم بمقدماته تسليمًا مطلقًا، وعليك بعدئذ أن تنتقل من هذه المقدمات إلى قضايا تالية دون أن تفيد علمًا بشيء جديد، ودون أن تعرف مدى مطابقة هذه المقدمات للوقائع الخارجية.

يقول بيكون:" هناك فصيلان من الذين تناولوا العلوم: أهل التجربة وأهل الاعتقاد، ويقصد بهم "القياسيون الاستنباطيون"، فأهل التجربة أشبه بالنمل الذي يجمع ويكدس مواد الغذاء ثم يتناولها بعد ذلك فحسب، وأهل القياس أشبه بالعناكب تغزل نسيجها من ذاتها، أي أنها لا تستمد من الخارج شيئًا، أما المنهج الذي ارتضاه بيكون فيشبه عنده النحلة، ويتخذ طريقًا وسطًا بين الإثنين تستخلص مادة من أزهار البستان والحقل، غير أنها تحولها، وتهضمها بقدرتها الخاصة، أي تضيف إليها من ذاتها، وعمل الفلسفة الحقيقي لا يختلف عن هذا: فهي لا تعتمد على قوتها العقلية وحدها، ولا تختزن المادة التي يقدمها التاريخ الطبيعي، والتجارب الميكانيكية في ذاكرتها كما هي، بل تغيرها، وتُعمل فيها الفكر، ومن ثم فإننا نأمل الكثير من خلال اتحاد هاتين الملكتين"التجريبية والعقلية" اتحادًا أوثق، وأصفى مما تم لهما حتى الآن".(١)

ولقد استدرك بيكون ما فات أرسطو في قضية الإستقراء فهو" يفصل الطبيعة بواسطة عمليات الرفض والاستبعاد الصحيحة، ثم يخلص إلى النتيجة الإيجابية بعد أن يكون قد جمع عددًا كافيًا من الحالات السالبة".(٢) فالاستقراء عند بيكون يتميز أساسًا بالرفض والاستبعاد، أى إسقاط كل ما تقضى بإسقاطه الأمثلة السالبة، واعتماد الاستقراء العلمي عند بيكون على الأمثلة السالبة؛ هو ما يعطى لبيكون مكانته بين الفلاسفة، يقول فرنسيس بيكون:" أما الاستقراء الذى نريده من أجل اكتشاف العلوم والبرهنه عليها، ينبغى أن يحلل بواسطة عمليات نبذ واستبعاد مناسبة، وعندئذ بعد عدد كاف من السوالب يصل إلى استنتاج عن الأمثلة الموجبة، وذلك شيئ لم يعمل حتى الآن".(٣)

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٩٥.

(٢) مؤلفات فرنسيس بيكون، عبدالرحمن بدوي، صـ٢٩١، الطبعة الثانية سنة١٩٧٧م، وكالة المطبوعات، الكويت.

(٣) الأورجانون الجديد، صـ١٠٣.

وعملية الحذف والإسقاط هى السبيل إلى تنقية الطبيعة، بعد الخضوع لها في بادئ الأمر، وهذا المنهج يشترط أن يكون عدد الحالات السالبة التى نقوم بحذفها عددًا كافيًا؛ لبلوغ اليقين، وهذا المنهج هو بذاته مطلق النجاح، واشتراط العدد الكافى من الأمثلة السالبه هو تأكيد لهذا اليقين المطلق.(١)

ومن هنا يهيب بنا بيكون أن نجمع ما استطعنا جمعه من الشواهد التى تحيط بظاهرة معينة، ثم نضع هذه الشواهد في قوائم ثلاث:

١– قائمة الحضور أو الإثبات، وفيها تجمع الأمثلة التى تحقق فيها الظاهرة.

٢– قائمة الغياب أو النفى، وفيها تجمع الأمثلة التى تنعدم فيها الظاهرة.

٣–قائمة التفاوت في الدرجة، وفيها نجمع الأمثلة التى تتفاوت فيها الظاهرة زيادةً ونقصًا.(٢)

وإذا كان بيكون وغيره من فلاسفة ومفكري الغرب قد نقدوا المنطق الأرسطي؛ لكي يعرج العقل الإنساني إلى قدس الحقيقة، ففلاسفة ومتكلمي المسلمين، وعلى رأسهم الغزالي، قد اتهموا المنطق الأرسطي بالآلية والنظرية، لا بالملاحظة والتجربة، والتي هما أهم وسائل فهم الظواهر الطبيعية، وأقوى حجة وواسطة للوصول إلى المعرفة.

ففي أول الأمر كان الغزالي يهتم بالمنطق، ويرفعه مكانًا عليًا، حتى إنه ليقول عنه:" إنه مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به فلا ثقة بعلومه أصلًا ".(٣)

وقد وصل التقديس من الغزالي للمنطق إلى درجة أن جعله ميزانًا يزن به كل العلوم، ومقياسًا يعرف به الغث من الثمين، فهو يقول في كتابه"القسطاس المستقيم"عن المنطق:"لا أدعي أني أزن بها المعارف الدينية فقط، بل أزن بها العلوم الحسابية، والهندسية، والطبيعية، والفقيه، والكلامية، وكل علم حقيقي غير وصفي، فإني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين، وكيف لا؟ وهو القسطاس المسقيم".(٤)

---

(١) مؤلفات برنسيس بيكون، صـ٦٤٨.

(٢) المنطق الوضعي، زكى نجيب محمود، جـ٢صـ١٨٧–١٩٥، الطبعة الثالثة سنة١٩٦١م، مكتبة الأنجلو،مصر.

(٣) المستصفى، صـ١٠.

(٤) القسطاس المستقيم، صـ٦٠،.

غير أن الغزالي في نهاية الأمر، يرد المنطق الأرسطي، ويشن عليه الحرب التي تشكك في قدرته على الوصول إلى الحقيقة، والتسلح بالمعرفة، ثم يمضي يتلمسها عند السادة الصوفية، بعد اعتزاله عشر سنين يبحث عن الطريق المستقيم، والمنهج القويم، عند أصناف الطالبين الذين قسمهم إلى أربع فرق فهم: المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم، فلا يبقى في دركه مطمع، وبعد دراسة واعية لمنهج هؤلاء وأفكارهم، انتهى الغزالي إلى أن زمام الحق لا يملكه إلا المتصوفه، الذين قال عنهم:" إني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله – تعالى– خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق".[١]

ولا يقتصر نقد المنطق الأرسطي على الغزالي فحسب، بل سبق بيكون من الفلاسفة"المدرسة الرواقيه" فإنهم عارضوا منطق أرسطو من أصوله الفلسفية التي قام عليها، وأقام منطقًا آخر يقوم على أصول غير الأصول التي قام عليها منطق أرسطو.[٢]

أما باقى علماء أصول الدين، فلم يقبلوا المنطق الأرسطي، ولم يستخدموه أثناء تصنيفهم للعلوم، يقول الإمام ابن تيمية[٣]:" لا تجد أحدًا من أهل الأرض حقق علمًا من العلوم، وصار إمامًا فيه مستعينًا بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيرها، فالأطباء والحساب والكتاب ونحوهم، يحققون ما يحققون من علومهم، وصناعاتهم، بغير صناعة المنطق، وقد صنف في الإسلام علوم النحو

---

(١) المنقذ من الضلال، صـ٤٩.

(٢) الفلسفة الرواقية، عثمان أمين، صـ١١٣، طبعة سنة ١٩٧١م، مكتبة الأنجلو، القاهرة – مصر.

(٣) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبى القاسم الخضر النميرى الحرانى الدمشقى الحنبلى، تقى الدين ابن تيمية، شيخ الإسلام،ولد فى حران ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من الهجرة.( سيرة أعلام النبلاء، جـ ٢٢، صـ ٢٨٨ ؛ وفيات الأعيان، جـ ٤، صـ ٣٨٦)

واللغة والعروض والفقه وأصول الكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق".(١)

ولقد هاجمة جميع الفرق الإسلامية المنطق الأرسطى، يقول الإمام ابن تيمية:"ما زال نظار المسلمين يصنفون في الرد على المناطقه، ويبينون خطأهم فيما ذكروه في الحد والقياس جميعًا..ولم يلتفت أحد من نظار المسلمين طوائف النظر كانوا يعيبونها، ويثبتون فسادها".(٢)

ويصدق على هذه الحقيقية العلامة ابن خلدون(٣)، إذ يقول:" لم يأخذ المتكلمون بالمنطق التي تسير به الأدلة، وتعتبر به الأقيسة؛ لملابسته للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية"(٤) فالباقلاني، وإمام الحرمين، وكثير من المعتزلة، خرجوا في أبحاثهم عن منطق أرسطوا.(٥)

ويذكر القاضي صاعد(٥) في كتابه"طبقات الأمم" أن ابن حزم(٦) ألف كتابًا سماه" التقريب لحدود المنطق" خالف فيه أرسطوطاليس، واضع هذا العلم في

---

(١) نقض المنطق، شيخ الإسلام/ ابن تيمية، صـ١٦٩،١٦٨، تحقيق/ محمد حمزة، وسليمان الصنيع، مكتبة السنة المحمدية، مصر.

(٢) الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام/ ابن تيمية، صـ٣٣٧، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م، مكتبة الحرمين، الرياض – المملكة العربية السعودية.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن محمد،ابن خلدون، الحضرمي الإشبيلي،مولده ومنشأه بتونس،رحل إلى فارس وغرناطة وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولى فيها قضاء المالكية، وتوفى بالقاهرة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الميلاد(الأعلام،جـ٣صـ ٣٢٠)

(٤) المقدمة،العلامة/عبدالرحمن بن خلدون، جـ١صـ٥٨٩، تحقيق/خليل شحاته، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨، دار الفكر، بيروت– لبنان.

(٥) مناهج البحث عند مفكري الإسلام، الدكتور/ علي سامي النشار، صـ٩٤. طبعة سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان.

(٦) هو القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي القرطبي الطليطلي، المالكي أبو القاسم، مؤرخ، بحاث، أصله من قرطبة، ومولده في المرية، ولي القضاء في طليطلة إلى أن توفي، سنة اثنين وستين وأربعمائة من الهجرة (الأعلام، جـ٣صـ١٨٦)

(٧) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام ، كان من صدور الباحثين، فقيها حافظاً، يستنبط الأحكام من الكتاب =

بعض أصوله.(١)

وقد بين "السهروردي"(٢)عيوب المنطق الأرسطي؛ لمعارضته منهجه، إذ أن المنطق اليوناني يقوم على تعدد الموضوعات من جهة أنه يفرق بين الجنس والفصل، والحاد والمحدود، والقائس والمقيس عليه، وأصحاب وحدة الوجود، وعلى رأسهم السهروردي، يرون عكس ذلك، إذ لا فرق عندهم بين هذه الأنواع، وقد حاول السهروردي الخروج عن المنهج الأرسطي بوضع نمط آخر للحدود يتفق مع منهجه، ولا يعارض مذهب الأصوليين.

ملخص القول في ذلك: أن علماء المسلمين وعلى رأسهم الغزالي، سبقوا بيكون في مسألة نقده لمنطق أرسطو، وقد بينوا عيوبه، واستدركوا ما فاته.

**المدرسة الثانية:** وهي التجريبية العشوائية، ويمثل هؤلاء –على حد قول بيكون– الخيميائيون القدامى، وعن هذه المدرسة، يقول بيكون:" تتولد عن المدرسة التجريبية معتقدات أكثر تشوهًا ومسخًا مما تنتجه المدرسة السوفسطائية؛ ذلك لأن هذه المعتقدات لا تتأسس في ضوء التصورات العامة، بل تقوم على أساس ضيق، ومعتم من حفنة تجارب، ومن ثم فإن هذه الفلسفة شبه يقينية عند الذين ينخرطون في مثل هذا الصنف من التجارب، أما لغيرهم فتبدوا بعيدة عن التصديق، وغير ذات جدوى، ولدينا عليها مثال صارخ في أهل الخيمياء ومعتقداتهم".(٣)

والخيمياءalchemy هي الكيمياء القديمة التي سادة في العصر الوسيط، فهي ممارسات قديمة ترتبط بعلوم الكيمياء، والفيزياء، والفلك، والفن، وعلم المعادن، والطب، وكانت تهدف إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب–عن

---

=والسنة، بعيداً عن المصانعة، توفى ببادية ليلة من بلاد الأندلس، سنة ست وخمسين وأربعمائة من الهجرة (وفيات الأعيان،جـ٣صـ٣٢٥)

(١) طبقات الأمم، القاضي صاعد، صـ٧٦، تحقيق/لويس شيخو اليسوعي، طبعة سنة ١٩١٢م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان.

(٢) عمر بن محمد بن عبد الله ابن عموية، القرشي التيمي البكري السهروردي، فقيه شافعي، مفسر، واعظ، من كبار الصوفية، وشيخ الشيوخ ببغداد، مولده في"سهرورد" ووفاته ببغداد، سنة اثنين وثلاثين وستمائة من الهجرة (الأعلام، جـ٥صـ٦٢)

(٣) الأورجانون الجديد، صـ٥٠.

طريق ما يسمى حجر الفلاسفة- وإلى إكتشاف إكسير الحياة، الذي يشفي من جميع الأدواء، ويُحصِّن الإنسان ضد الفناء.

وهذه العلوم لم تكن تمارس بطريقة علمية كما هو اليوم؛ لفقدها وعدم قيامها على التجربة الصحيحية، وإذا ما أثمرت بضع نتائج فذلك مرجعه إلى الصدفة، وبشكل عابر، أو من خلال تنوع تجاربهم، كما يفعل الميكانيكيون أيضًا، فهذه المادة لم تؤسس على فن مقرر أو نظرية، فالنظريات التي تخيلوها تربك التجارب أكثر مما تعينها[1]؛ لكونها تمتزج بالخرافه، وتتوهم إخضاع الطبيعة لأغراض الإنسان.

فالخيمياء قديمًا، كانت تقوم على تصور للكون مستمدًا أصلًا من الرواقية، ومن الأفلاطونية المحدثة، وينطوي على القول بنوع من التنافر، وهو تصور لا ينكشف إلا عن طريق التجربة الدقيقة، المتبع فيها المنهج العلمي.

**المدرسة الثالثة:** وهم أصحاب الخرافات، الذين يمزجون الفلسفة باللاهوت، ويمثل هؤلاء الفيثاغورسين.

لقد شهدت الفلسفة في العصور الوسطى تطورًا جعلها جزءًا من اللاهوت النصراني، أكثر من كونها فرعًا مستقلًا من البحث العلمي، ولم يبق للفلسفة اليونانية من آثار سوى ما تركته من أثر على الفكر الديني، يقول بيكون:"وهناك بَعدُ صنف ثالث من الفلاسفة يحملهم إيمانهم ووقارهم على أن يخلطوا فلسفتهم باللاهوت والتعاليم، ومن هؤلاء من بلغ بهم الغرور مبلغًا جعلهم يحاولون اشتقاق العلوم من الأرواح والعفاريت".[2]

ويرجع السبب في مزج الفلسفة باللاهوت النصراني،أن أعمال أرسطو ترجمت الى اللاتينية، وهي لغة الكنيسة آنذاك، وهذا حث المفكرين أن يحاولوا التوفيق بين أفكار أرسطو والعقيدة النصرانية، ومن يطالع كتابات القديس "توما الأكويني" يجد أنه قد جمع في فلسفته، وفكره اللاهوتي مضافًا إليه فلسفة أرسطو.

---

(١) الأورجانون الجديد، صـ٦٥.

(٢) الأورجانون الجديد، صـ٤٧.

ولما قامت الحركة الثقافية، أو النهضة الأوربية، كان من روادها "فرنسيس بيكون" والذي أحدث بدوره تغيرًا كبيرًا في أهداف البحوث الفلسفية، وحينها تحررت من قيود الكنيسة، وانفكت من روابطها مع الفكر اللاهوتي الموروث من القرون الوسطى، وأصبحت حرة طليقة تبحث في كل الموضوعات، وشتى المجالات، بعدما كانت مكبدة بالخروفات الكنسية.

نستطيع أن نقول: أن أوهام المسرح تتمثل فيما تمتلكة الأفكار والنظريات القديمة من سلطة، لا بحكم صدقها، ولكن لمجرد قدمها فقط، ولقد حاول بيكون كشف الغطاء عن تهافت فهمنا لها، مع العلم بأن علماء المسلمين القدامى وعلى رأسهم الإمام الغزالي، قد انتبهوا إلى هذا النوع قبل بيكون، ومع هذا نقول: إذا كان هناك عقول أشربت بإعجاب لا حدود له بالقديم، وعقول أخرى مغرمة بالجديد، فإنة يجب علينا أن نقف موقفًا متوازنًا فلا نبخس للقدماء بضاعتهم، ولا نزدري إنجازات وإسهامات المحدثين، وهذه هى الأحكام المستبصرة التي لا تلتمس الحقيقه في حظوة زمن بعينه.

وتلك هي الأوهام الأربعة، والتي قد تجتمع كلها فى شخص واحد، وقد ينفرد ويؤثر فى شخص عامل واحد منها أو أكثر.

وهي أوهام ينبغي التخلي عنها، وتطهير العقل وتحريره منها، فإذا ما انطلق العقل البشري من عقالها، وقارب الطبيعة على خطى فرنسيس بيكون فهو على ثقه من إصابة الهدف، والوصول إلى الحقيقة، التي لم يصبح لها إلا مدخلًا واحدًا قائمًا على العلوم.

# الخاتمة

# نتائج البحث وفوائده

وفيها نقاط الاتفاق والاختلاف بين الجاحظ والغزالى وفرنسس بيكون، فى تناولهم لمجالات أوهام العقل.

أولاً: أوجه الاتفاق بينهم:

١- كلاهم يؤمن بسلطان العقل، وكونه حكمًا في الأمور كلها، وأساسًا لتحصيل المعرفة الإنسانيه، ومناطًا للتكليف.

٢- كلاهم أثبت أن للعقل أوهام، تعوقه عن الوصول للنتائج الصحيحة، وعليه ينبغي التخلص منها لضمان تقدم العلوم.

ثانياً: أوجه الاختلاف بينهم:

١- مصدر الأوهام في فكر كل من الغزالي وبيكون، هو خلل في تركيب العقل نفسه، بينما يرى الجاحظ أن مصدر الوهم ليس هو العقل، وإنما مصدره تدخل من الخارج في العملية الطبيعية العادية للعقل، وفي هذا يتوافق الجاحظ مع ديكارت، ولكنهما يختلفان في هذا المتدخل فقد يكون عند الجاحظ:"خلل عضوي أو نفسي، وقد يكون سببه عدم إلتزام سمات المنهجية الصحيحة من: حفظ، وعدم ترتيب المعارف وتناولها وفق المقاصد الأساسية، أو أنه الشك، وإذا لم يكن ذلك فهي الطباع من شهوات وأهواء" أما ديكارت فيرى أنها الإرادة فهي المسؤلة عن اضطراب العقل، ويعترض عليها سبينوزا ؛ لأنه يعتقد أن سبب الوهم هو الخيال.

٢- الجاحظ وهو يتحدث عن دور الطباع، وما يصيب الإنسان من خلل عضوي ونفسي، يغوص في أعماق النفس البشرية؛ ليكشف عن أهم وأكبر المشكلات التي تقابل العقل، وتعمل على تعطيله، ومن ثم تؤثر سلبًا على قيامه بمهامه، ويرتكز في ذلك على أصول المصادر الإسلامية.

٣- الجاحظ يتحدث في هذه القضية عن المنهجية العلمية التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة يُسَلَم بها، فالحفظ والتقليد، وعدم ترتيب المعارف وتناولها وفق المقاصد الأساسية، والشك اللامنهجي،

والغلو في النزعة الحسية التجريبية، كل ذلك يؤثر على وظائف العقل؛ لكونه خارج نطاق المنهجية العلمية.

وبهذا يكون الجاحظ أول من اكتشف المنهج التجريبي، وطبق الشك المنهجي، وأول من وضع يده على أوهام للعقل، فهو ابن القرن الثاني الهجري، أي قبل ميلاد الغزالي – الذي يسبق بيكون بأربعة قرون ونصف– بما يقرب من قرنين من الزمان.

٤- يسمي الغزالي هذه الحالة التي تصحب العقل بـ"غلطات الوهم" وهي عبارة أكثر دقة وإيضاحًا، فالوهم نتاجه الغلط، بينما أطلق عليها بيكون عدة مسميات منها: الأوهام والأوثان والأصنام والأشباح، وقد استعار بيكون هذه المسميات؛ لأنها مرتبطة في العقل بالتضليل والزوغان عن الحق، والأوهام تشاركها في ذلك.

٥- هدف الجاحظ من وراء هذه القضية، الحفاظ للعقل على مكانته، بمعالجة ما يصيبه من أوهام، تؤثر على دوره المنوط به، لا سيما وأن الحقيقة لا تعرف – عند الجاحظ كرجل معتزلي– إلا بحجية العقل، أما الغزالي فقد كان يهدف إلى، بيان توهم كثير من الفرق والطوائف المختلفة، فيما اعتقدوه من آراء متفاوته، حول مصدر "الحسن والقبيح" مع توضيح وتفصيل ما ترتب على ذلك من مغالطات، بينما كان هدف بيكون، مساعدة الإنسان على استعادة سيطرته على الطبيعة ، وإصلاح المنطق الصوري الأرسطي وتعديله والاستعاضة عنه بمنطق جديد يمهد السبيل أمام الإنسان لكي يستطيع بواسطته الكشف عن ظواهر الطبيعة والسيطرة عليها فإستبدال منهج البرهان القياسي، بمنهج الكشف الإستقرائي ضمان لتقدم العلوم؛ لكون الإستنتاج القديم لا يمكن أن يؤدي إلى حقائق، وعليه فإنه من الواجب محو الأخطاء التي انحدرت من الأجيال السالفة، ولن يكون إلا بتطهير العقل البشري.

٦- للعقل أوهام ثلاثة عند الإمام الغزالي، **أولها:** التعميم في الحكم على الأشياء، أو الأشخاص، أو الأفكار، أو غير ذلك من صور التعميم، وهذه ظاهرة منتشرة بين الناس، والمعيار فيها يرجع إلى موافقة الغرض أو مخالفته، ويجب معالجة هذه الظاهرة، وذلك يكون بالتجرد والموضوعية، ثم

ملاحظة تفاوت أغراض الناس، ومراعات تغير المصالح بتغير الظروف، ثم الوعي الذاتي، بالقدرة على تمييز طبيعة سلوكنا ومشاعرنا واتجاهاتنا.

**ثانيها:** إصدار الأحكام على وجه العموم، ودون الاستقراء التام لأفراد، وأجزاء المحكوم عليه، فمن الناحية المنطقية يجب تصفح أجزاء كل المحكوم عليه حتى يتثنى إصدار حكم كلي يفيد اليقين، والذي يجب أن ننبه عليه هنا، أن الإمام الغزالي ساهم في وضع لبنات هذا المنهج، وتصور آلياته ومفاهيمه، فهو يقول:" الاستقراء هو تصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكمًا في تلك الجزئيات حكم على ذلك الكلي به"(١) ومن هنا نؤكد على أن الإمام الغزالي سابق لبيكون وفلاسفة الغرب، في وضع أسس هذا المنهج، على خلاف من يدعي غير ذلك.

**ثالثها:** التلازم بين الأعم والأخص يوهم بثبوت الأعم، فيثبت معه الأخص، وهنا يقع الوهم، وما رئي مقرونًا بالشيء يظن أنه الشيء نفسه وهذا غلط، والإنفعالات، والعادات ، والمشاعر، تسهم في بناء الأحكام، وأن النفس متى توهمت شيئًا خدمتهاالأعضاء، وتحركت نحو الجهة المتخيلة المطلوبة، وهذا ما قاله الإمام الغزالي يعرف في علم النفس بقانون "الإشراط أو الإقتران أو الإستجابة الشرطية" الذي نادى به عالم النفس الروسي"إيفان بافلوف" في آواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

ومع أن الغزالي هو مؤسسه، فالذي يطالع كتاب"تهافت الفلاسفة" يدرك أن الغزالي هو أول من وضع دعائم هذه النظرية، وأنَّ ما يدّعيه علماء الغرب، وينسبونه لـ"بافلوف" غير صحيح، وقد أحسن الإمام الغزالي حين درس هذه النظرية من الناحية الفلسفية لا الطبية السلوكية كما فعل "بافلوف"؛ لأن الجانب الفكري أقرب لهذه النظرية من أي جانب آخر.

٧- وللعقل أوهام أربعة في فكر فرنسيس بيكون، **أولها:** يصيب عامة الناس؛ لكونه مستقر في الطبيعة الإنسانية، ينشأ من قصور في الفهم، فهم لا يدركون الواقع كما هو، وإنما كما هم، لذلك سماها بيكون بأوهام القبيلة، ويقصد الجنس والنوع البشري، فمن الناس من يعطي الموضوعات قدرًا أكبر مما هي عليه، ومنهم من يميل إلى تبسيط الأمور وتصغيرها على نحو يغاير ما هي عليه في

---

(١) معيار العلوم، صـ٣٠.

الحقيقة، أما العقل المعترف به عند بيكون، هو ما يشبه المرآة المستوية، التي تعكس الأشياء كما هي، فهو عقل يمثل الواقع، ويصدر القرارات التي تناسب الحدث.

وبيكون لم يأت بجديد فيما يتعلق بهذه المسألة ، فالإمام الغزالي قال بها منذ أمد بعيد، ألم تر أنه صور لنا المناوشات الدائرة بين الحواس والعقل، وفيها تتهم الحواس العقل بالقصور وعدم إدراك الواقع على حقيقته، فهي تُحَذِّرُ من الإنخداع بالعقل، والإيمان المطلق به، فتقول:" بم تأمل أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقًا بي فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه"(١) وهذا تجسيد للواقع برؤية الإمام الغزالي.

**ثانيها:** الإنغلاق الفكري، والإنكفاء على الذات، وهذا النوع يعرف عند بيكون بأوهام الكهف، فالفكر الذي يرفض الآخر، ويقيم حاجزًا يمنع الإنخراط في علاقة تفاعلية على المستوى الثقافي، بمثابة ظلام دامس يفتقر إلى شعاع يبدده، فالطبيعة الفردية، وأحادية الرأي، يعوقا عن الرؤية الحقيقية مع شعور بالراحة والطمئنينة؛ لإشباع الرغبة، وعدم الخروج عن منطقة الراحة، من مزاج شخصي وجمود، ثم تحيز للميراث الفكري.

وهذه الصنف من الأوهام تناولته من قبل "أسطورة الكهف الأفلاطونية" الذي يرمز فيها أفلاطون حالة المعرفة الحسية بحالة سجناء الكهف، وهي حالة الجهل والظلام المعرفي.

وحتى يتخلص المرء من أوهام الكهف، عليه كما قال بيكون:" أن ينظر بإرتياب إلى كل ما يفتن عقله" والمتمعن في هذه المقولة يدرك أن هذا هو منهج الشك الذي أثر به الغزالي في كل من بيكون وديكارت وغيرهما من فلاسفة الغرب، فهو يعتبر الشك المنهجي هو الموصل إلى العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم إنكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه الغلط والوهم.

---

(١) ميزان العمل، صـ١٥.

وعن أوهام الكهف يتحدث القرآن الكريم فعلى سبيل المثال قوله تعالى: **{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ }**(١) وقوله تعالى: **{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}**(٢) وقد ألقينا الضوء على هذه الآيات، لنثبت ونؤكد على أن القرآن الكريم له فضيلة السبق على علماء الغرب، في كثير من نظرياتهم اللاتي يتباهون بها.

**ثالثها:** إن عدم الإنسجام، والتوافق بين معاني الأفكار، والألفاظ الحاملة لها، لهو أكثر الأوهام إزعاجًا؛ إذ أنه يرجع إلى عجز الكلمات في نقل الخواطر والأفكار.

ولما كانت عمليت تبادل الأفكار بين الناس تشبه ما ما يحدث في السوق من تبادل السلع، سمى بيكون هذا النوع بأوهام السوق، إذ أن الناس متى اجتمعت في السوق لا تملك أداة للمناقشة، وتبادل الأفكار سوى الألفاظ، أو أنه أراد أن يشير إلى أهم أماكن التواصل الاجتماعي، فهو الميدان العام، والساحة الكلامية الأوسع، ولعله كان يقصد الأبعد من ذلك وهو: أن الناس على هذه الحالة يتبادلون الحديث باللغة التي صنعت ألفاظها وعبارتها لكي تلائم أوساط الناس وهم السُّوقة.

ويرصد بيكون نوعين من الأوهام التي توجبهما اللغة هما من بواعث الخلل المعرفي والإستيعابي:

**الأول:** أسماء الأشياء التي لا وجود لها، وتفتقر إلى ذوات؛ لكونها وليدة افتراضات خيالية لا نظير لها في الواقع.

**الثاني:** أسماء لأشياء مختلطة وغير محددة؛ لأنها انتزعت من الأشياء على عجل، ودون إحكام وإتقان.

**رابعها:** لقدماء الفلاسفة اتجاهات، ومذاهب يتلقاها الناس بالتسليم المطلق، دون فكر وروية وإعمال العقل، فالأنظمة الفلسفية التي يتلقاها كل جيل عن أسلافهم ليست إلا روايات مسرحية تمثل موجودات خلقها الفلاسفة كما يشكل الروائي أبطال روايته وحوادثها، وهذا ما حث بيكون على أن يسمي هذا الضرب بأوهام

---

(١) سورة غافر، من الآية:٨٣.

(٢) سورة الكهف، الآيتان:١٠٣ ،١٠٤.

المسرح، ويتمثل فيما تمتلكه النظريات القديمة من سلطة لمجرد قدمها فقط، ولهم ثلاث مدارس فكرية.

**الأولى:** المدرسة النظرية، ويحمل رايتها فلاسفة اليونان، وعلى رأسهم "أرسطو" الذي يخالفه بيكون، ويرد قواعده المنطقية " الإستقراء والقياس" فالمخالفة؛ لكونه يدعو إلى العلم النظري، ولا يعترف بالتجربة التي يراها بيكون هي العلم القابل للتطبيق، الدافع للنهضة.

وأما الإستقراء والقياس، فالإستقراء يعتمد في الوصول إلى قوانيين الطبيعة على طريقة الإحصاء البسيط للأمثلة الجزئية الإيجابية، وهذا عيب في نظر بيكون ويجب تطبيق عملية الرفض والإستبعاد التي نخلص منها إلى نتيجة إيجابية بعد جمع عددًا كافيًا من الأمثلة السالبة.

**الثانية:** المدرسة التجريبية العشوائية، ويمثلها الخيميائيون، الذين لم يؤسسوا علومهم على التجربة الصحيحة كما هو اليوم، وإنما مزجوها بالإعتقادات المستمدة من الرواقية والأفلاطونية المحدثة.

**الثالثة:** وهم أصحاب الخُرَافَات الذين خلطوا الفلسفة باللاهوت، عند ترجمة أعمال أرسطو إلى اللاتينية، وهي لغة الكنيسة آنذاك، وأدى ذلك إلى تأثر الفلسفة بالعقائد النصرانية، واستمرت على هذا الحال إلى أن تحررت من أغلال الكنيسة، وأكثر أتباع هذه المدرسة هم الفيثاغورسين.

وهذا النوع من الأوهام قد انتبه إليه علماء المسلمين القدامى، وعلى رأسهم الإمام الغزالي، وابن تيميمة وابن حزم والسهروردي وغيرهم، فقد نقدوا منطق ارسطو، وكشفوا عن عواره، واستدركوا ما فاته.

# ﴿فهرس المراجع والمصادر﴾

– أ –

١) إحصاء العلوم، الفيلسوف/ محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي(المتوفي سنة ٣٣٩هـ) تحقيق/على بو ملحم، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، دار ومكتبة الهلال، بيروت– لبنان.
٢) إحياء علوم الدين، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة ٥٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت– لبنان.
٣) أدب الدنيا والدين، الإمام/علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي(المتوفي سنة ٤٥٠هـ) تحقيق/ محمد كريم راجح، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، دار أقرأ، بيروت – لبنان.
٤) أرسطو، عبد الرحمن بدوي، طبعة سنة١٩٨٠م، دار القلم، بيروت – لبنان.
٥) أسنى المطالب في شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ) دار الكتاب الإسلامي.
٦) أصول السرخسي، الإمام/ الفقيه الأصولي أبى بكر محمد بن أحمد بن أبى سهل السرخسى(المتوفى سنة ٤٩٠ هـ) دار المعرفة، بيروت – لبنان.
٧) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلى(المتوفى سنة١٣٦٩هـ) الطبعة السابعة مايو سنة ١٩٨٦م، طبعة دارا لعلم للملايين.
٨) الألفاظ الفارسية المعربة، السيد اوي شير، الطبعة الثانية سنة١٩٨٨م، دار العرب للبستاني، مصر
٩) الأورجانون الجديد" ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة" فرنسيس بيكون، ترجمة/عادل مصطفى، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣م، طبعة رؤية، القاهرة– مصر.

– ب –

١٠) البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة " دراسة مقارنة بين التصور الإسلامى والفكر الوضعى " الدكتور/ عبدالله على سمك،الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣م، بدون ناشر.
١١) البداية والنهاية، الإمام/أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) تحقيق/ أحمد عبد الوهاب فتيح، الطبعة السادسة سنة ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢ م، دار الحديث، القاهرة – مصر.
١٢ ) البحر المحيط في أصول الفقه،الإمام/بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (المتوفي ٧٩٤ هـ) الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، دار الكتبي، مصر.

١٣) البيان والتبيين، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥هـ) طبعة سنة ١٤٢٣ هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

– ت–

١٤) تاريخ بغداد، المؤرخ/ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب (المتوفي سنة ٤٦٣هـ) تحقيق/مصطفى عبد القادر عطا،الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ،دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

١٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسق كرم ، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر.

١٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام، الدكتور/ ت.ج. دي بور، ترجمه وعلق عليه الدكتور/ محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٤م، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان.

١٧) تسعة رسائل في الحكمة والطبيعيات، الشيخ الرئيس/ ابن سينا، الرسالة الرابعة في الحدود، الطبعة الثانية ، دار العرب للبستاني، مصر.

١٨) التعريفات، الإمام/ علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني(المتوفى سنة ٨١٦هـ) الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٩) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله التميمي، الطبعة الخامسة سنة ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة.

٢٠) تهافت الفلاسفة، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة ٥٠٥هـ) تحقيق الدكتور/سليمان دنيا، دار المعارف، مصر.

٢١) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) تحقيق/ محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى سنة٢٠٠١م ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٢٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنام،الإمام/عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي(المتوفي سنة ١٩٥٦م) تحقيق/عبدالله بن ملا اللويحق، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠م – ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

–ج–

٢٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الإمام/ أبى جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري(المتوفى سنة٣١٠هـ) تحقيق/أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

-ح-

٢٤) حياة الحيوان الكبرى، الأديب/محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميري، أبوالبقاء(المتوفي سنة ٨٠٨هـ) الطبعة الثانية سنة١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٢٥) الحيوان، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥هـ) الطبعة الثانية سنة ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

- د -

٢٦) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، الشيخ/محمد الغزالي، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

- ذ -

٢٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الإمام/ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني(المتوفى سنة ٥٠٢هـ) طبعة ١٩٧٣م، مكتبة الكليات الأزهرية.

- ر -

٢٨) الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام /تقي الدين أبى العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرآنى الدمشقي (المتوفى سنة٧٢٨هـ) الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مكتبة الحرمين، الرياض - المملكة العربية السعودية.

٢٩) الرسائل الأدبية، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥هـ)الطبعة الثانية سنة ١٤٢٣هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان.

٣٠) رسائل الجاحظ، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥هـ) تحقيق/عبد السلام محمد هارون، طبعة سنة ١٣٨٤ هـ-١٩٦٤م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣١) رسائل العدل والتوحيد، تحقيق الدكتور/ محمد عمارة، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الشروق، مصر.

٣٢) الرسائل السياسية، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥هـ)تحقيق الدكتور/علي بو ملحم،طبعة سنة ٢٠٠٢م،دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان.

٣٣) الرسائل الكلامية، الأديب الفيلسوف/عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفي سنة٢٥٥هـ)تحقيق الدكتور/علي بو ملحم، طبعة سنة ٢٠٠٢م،دار ومكتبة الهلال، بيروت– لبنان.

٣٤) رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق/ محمد عبدالهادي أبو ريدة، طبعة سنة ١٣٦٩هـ–١٩٥٠م، دار الفكر العربي.

٣٥) رسالة في العقل، الفيلسوف/ محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي(المتوفي سنة ٣٣٩هـ) تحقيق/ موريس بويج، طبعة سنة ١٩٣٨.

٣٦) روح البيان في تفسير القرآن، الإمام/إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي، أبو الفداء(المتوفي سنة ١١٢٧ هـ) دار الفكر، بيروت – لبنان.

– س–

٣٧) سيرة أعلام النبلاء، الإمام/محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله (المتوفى سنة٧٤٨هـ) تحقيق/مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

– ش–

٣٨) شرح كتاب النجاة، فخر الدين الإسفرايني، تحقيق الدكتور/حامد ناجي اصفهاني،طبعة سنة ١٣٨٣م.

- ص-

٣٩) صحيح البخاري(الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول –ﷺ– وسننه وأيامه) الإمام/ أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦هـ)، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ ، دار طوق النجاة ، بيروت – لبنان.

٤٠) صحيح مسلم(المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) الإمام/أبو الحسين
مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى(المتوفى سنة٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان.

- ط-

٤١) الطب الروحاني، الطبيب الفيلسوف/ أبو بكر محمد بن زكريا الرازي(المتوفي سنة ٣١٣هـ) تحقيق الدكتور/ عبداللطيف العبد، طبعة سنة ١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية.

٤٢) طبقات الأمم، القاضي/ صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي، أبو القاسم (المتوفي سنة٤٦٢ هـ) تحقيق/لويس شيخو اليسوعي، طبعة سنة ١٩١٢م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان.
٤٣) طبقات الشافعية، الإمام/ أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (المتوفى سنة ٨٥١هـ) تحقيق الدكتور/الحافظ عبد العليم خان، الطبعة الأولى سنة١٤٠٧هـ، دار عالم الكتب– بيروت.
٤٤) طبقات الشافعية الكبرى، قاضي القضاة/ تاج الدين السبكي: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر(المتوفي سنة ٧٧١هـ) تحقيق الدكتور/ محمود الطناحي والدكتور/عبد الفتاح الحلو،الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ، دار هجر.
٤٥) طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي(المتوفى في القرن ١١هـ) تحقيق/سليمان بن صالح الخزي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية.
٤٦) الطريق إلى التفكير المنطقي، وليم شانر، ترجمة الدكتور/ عطية محمود هنا، طبعة سنة ١٩٦١م، مكتبة النهضة المصرية.

- ظـ

٤٧) ظلام من الغرب، الشيخ/ محمد الغزالي، طبعة سنة ١٩٨٦م، دار الشهاب.

-ع-

٤٨) عجائب المخلوقات والحيونات وغرائب الموجودات،الإمام/ زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني المتوفي سنة ٦٨٢هـ، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان
٤٩) العقلانية الإسلامية، الدكتور/ محمد عمارة ، مجلة العربي، العدد ٣٤١، سنة ١٩٨٧م.
٥٠) العقل وفضله، الإمام/ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان،ابن أبي الدنيا القرشي الاموي، البغدادي، تحقيق/ لطفي محمد الصغير، دار الراية.
٥١) علم النفس التربوي، الدكتور/ عبدالمجيد نشواتي، الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، دار الفرقان، عمان– الأردن.

- ف-

٥٢) فتح القدير، الإمام/ محمد بن على بن محمد الشوكانى(المتوفى سنة ١٢٥٥هـ) الطبعة الأولى سنة١٤١٤ هـ ، دار ابن كثير، و دار الكلم الطيب، دمشق– بيروت.

٥٣) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، الإمام/ أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفراييني التميمي(المتوفي سنة ٤٢٩هـ) تحقيق/ محمد محي الدين عبدالحيد، طبعة سنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت– لبنان.
٥٤) فرنسيس بيكون مجرب العلم والحياة، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٥٥) الفروق اللغوية، الأديب/الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال(المتوفي بعد سنة٣٩٥هـ) تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، مصر.
٥٦) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال، الفيلسوف/أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد الأندلسي(المتوفي سنة ٥٩٥هـ) تحقيق الدكتور/ محمد عمارة، الطبعة الثالثة، دار المعارف.
٥٧) الفلسفة الرواقية، عثمان أمين، طبعة سنة ١٩٧١م، مكتبة الأنجلو، القاهرة – مصر.
٥٨) فلسفة المعتزلة، ألبير نصري نادر، طبعة دار الثقافة، الأسكندرية، مصر.

- ق-

٥٩) القاموس المحيط، أبو طاهر مجيد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي(المتوفي سنة ١٤١٤هـ) تحقيق/ محمد نعيم العرقسُوسي وآخرين، الطبعة الثامنة سنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥ م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.
٦٠) الاقتصاد في الإعتقاد، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة ٥٠٥هـ) تحقيق/عبد الله محمد الخليلي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٦١) القسطاس المستقيم، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة ٥٠٥هـ) تحقيق/محمود بيجو، طبعة سنة ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م، الطبعة العلمية، دمشق.
٦٢) قصة الفلسفة، المؤرخ/ ول ديورانت، ترجمة الدكتور/ فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة المعارف، بيروت – لبنان.
٦٣) قصة الفلسفة الحديثة، الكاتب والأديب/ زكي نجيب محمود، طبعة سنة ١٣٥٥هـ– ١٩٣٦م، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.
٦٤) قواعد لتوجيه الفكر، الفيلسوف الفرنسي/ رونيه ديكات، القاعدة الثالثة، ترجمة/سفيان سعدالله، دار سراس، تونس.

- ك -

٦٥) الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي(المتوفي سنة١٠٩٤هـ) تحقيق/عدنان درويش ومحمد المصري، طبعة سنة١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

- ل -

٦٦) لسان العرب، العلامة/ أبى الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(المتوفى سنة
٧١١هـ)الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت – لبنان.

- م -

٦٧) المحاورات الكاملة، الجزء الأول الجمهورية، الفيلسوف اليوناني/أفلاطون(المتوفي سنة ٣٤٧قبل الميلاد)، ترجمة/ شوقي داود تمراز، طبعة سنة ١٩٩٤م، دار الأهلية، بيروت- لبنان.

٦٨) المستصفى، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة ٥٠٥هـ) تحقيق/ محمد عبدالسلام عبدالشافي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٦٩) المسند، الإمام/ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني(المتوفى سنة ٢٤١هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، دار الحديث، القاهرة.

٧٠) مشكاة الأنوار في توحيد الجبار، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي(المتوفي سنة ٥٠٥هـ) تحقيق الدكتور/سميح دغيم، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤ م، دار الفكر، بيروت- لبنان.

٧١) معجم الأدباء، المؤرخ والأديب/ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين(المتوفي سنة٣٢٣هـ) تحقيق/ إحسان عباس، الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان.

٧٢) معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٦م، دار الطليعة، بيروت – لبنان

٧٣) معراج السالكين، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة٥٠٥هـ) الطبعة الأولى سنة١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م، مطبعة السعادة، مصر.

٧٤) المعجم الفلسفي، الدكتور/جميل صليبا، طبعة سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م، الشركة العالمية للكتاب – بيروت.
٧٥) المعجم الكبير، الإمام/ سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني(المتوفي سنة ٣٦٠هـ) تحقيق/حمدي السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.
٧٦) المعجم الموسوعي في علم النفس، نوربير سيلامي، ترجمة/ وجيه أسعد، طبعة سنة٢٠٠١م، منشورات وزارة الثقافة، دمشق- سوريا.
٧٧) معيار العلم في فن المنطق، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة٥٠٥هـ) تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا، طبعة سنة ١٩٦١م، دار المعارف، مصر.
٧٨) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي/ أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل المعتزلي الرازي الهمداني الأسدأبادي،الطبعة الأولى سنة١٣٨٠هـ-١٩٦٠ م، دار الثقافة والإرشاد، مطبعة دار الكتب، مصر.
٧٩) مفاتيح الغيب، الإمام/ محمد الرازي فخر الدين بن العلامة، ضياء الدين عمر، المشتهر بخطيب الري، (المتوفى سنة٦٠٦هـ) الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٨٠) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، الإمام/محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين(المتوفى سنة ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
٨١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى سنة ٥٠٢هـ)تحقيق/صفوان عدنان الداودي،الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ،دار القلم والدار الشامية،بيروت – لبنان.
٨٢) مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ترجمة/ محمود محمد الخضيري، تقديم ومراجعة الدكتور/ محمد مصطفى حلمي، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨م، دار الكتاب العربي، مصر.
٨٣) المقالة الثانية عشرة، أرسطو، ترجمة/ ماجد فخري، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م، المكتبة الأهلية.
٨٤) المقدمة، المؤرخ/ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى سنة٨٠٨هـ) تحقيق/خليل شحاته، الطبعة الثانية،سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م،دار الفكر ،بيروت- لبنان.

٨٥) الملل والنحل، الإمام/محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح المعروف بالشهرستانى(المتوفى سنة٥٤٨هـ)تحقيق/ محمد سيد كيلاني،الطبعة الثانية سنة١٣٩٥هـ-١٩٧٥م،دار المعرفة،بيروت-لبنان.
٨٦) من الفكر والقلب، محمد سعيد البوطي، دار الفقيه، الأمارات العربية المتحدة.
٨٧) مناهج البحث العلمي،الدكتور/ عبد الرحمن بدوى، طبعة سنة ١٩٦٣م، دار النهضة العربية، مصر.
٨٨) مناهج البحث الفلسفي، الدكتور/ محمد أحمد مصطفى السرياقوس، طبعة سنة ١٩٩٥م، دار الثقافة للنشر ، القاهرة.
٨٩) مناهج البحث عند مفكري الإسلام، الدكتور/ علي سامي النشار، طبعة سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان.
٩٠) المنطق الوضعى، زكى نجيب محمود، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١م، مكتبة الأنجلو، مصر.
٩١)المنقذ من الضلال، الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة٥٠٥هـ) تحقيق/ محمد محمد جابر ،المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان.
٩٢) مؤلفات فرنسيس بيكون، عبدالرحمن بدوي، الطبعة الثانية سنة١٩٧٧م، وكالة المطبوعات، الكويت.
٩٣) ميزان العمل الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي (المتوفي سنة٥٠٥هـ) تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م، دار المعارف، مصر.
٩٤) الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعه، المملكة العربية السعودية.
٩٥) موسوعة الفلسفة،عبدالرحمن بدوي، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان.
٩٦) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، العلامة/ محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي(المتوفي بعد سنة ١١٥٨هـ) تحقيق الدكتور/علي دحروج، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان.
٩٧) موسوعة مشاهير العالم، الدكتور/ نبيل موسى، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م، دار الصداقة العربية، بيروت- لبنان.

٩٨) موسيقى الحوت الأزرق، الدكتور/ أحمد علي سعيد أدونيس، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢م، دار الآداب، بيروت – لبنان.

– ن –

٩٩) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأديب المؤرخ/ عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الانصاري، أبو البركات،كمال الدين الأنباري، تحقيق/إبراهيم السامرائي، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ– ١٩٨٥م، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن.

١٠٠) نظريات التعلم، فوزي أيوب، طبعة سنة ١٩٩٨م.

١٠١) نقض أصول العقلانيين، سليمان بن صالح الخراشي، دار علوم السنة.

١٠٢) نقض المنطق، شيخ الإسلام/ تقي الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرآنى الدمشقي(المتوفى سنة٧٢٨هـ)تحقيق/ محمد حمزة، وسليمان الصنيع، مكتبة السنة المحمدية، مصر.

١٠٣) نهاية الإقدام في علم الكلام، الإمام/محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستانى(المتوفى سنة٥٤٨هـ)، تحقيق/أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

– و –

١٠٤) وفيات الأعيان، الإمام/ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الأربلى الشافعي(المتوفى سنة٦٨١هـ) تحقيق/إحسان عباس، الطبعة الأولى سنة١٩٠٠م، دار صادر، بيروت– لبنان.

# فهرس الموضوعات